إقرأ

قصص الحب العربية



عبد الحميد إبراهيم محمد

دار المعارف بمصر

٥ ج

قصص الحبّ العربية

عبد الحميد إبراهيم محمد

قصص الحبّ العربية

أغراضها .. وتطورها

اقرأ ٢٨٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٨ – ديسمبر سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

١

عاطفة الحب عاطفة إنسانية أصيلة ، يغرى الحديث عنها كل فرد ، ويجذب كل إنسان . وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة ، وسيظل إلى أن تنتهى الخليقة .

وقد أولع العرب بنوع من الحب العفيف ، المبنى على التصون والتحرز ، وتنزيه المرأة عن المباذل والدنايا . فقد كانوا يقدرون المحب العذرى ويحترمونه ، فأخو الفزارية كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال لهم : « دعونى ، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام » . وهناك عاشق أصاب السبع معشوقته فلحق بها ، فعظم القوم تضحيته وقالوا : « والله لننحرن عليه تعظيماً له ، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة ، وتسامع الناس ، فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلثمائة ناقة » ، وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة ، ويعطفون على أصحابها ، فمعاوية يقول : « لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما » ، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة فجميل يذكر فى نهاية القصة التى رواها عن معشوقة افترسها الأسد ولما علم عاشقها بذلك انتحر ولحق بها — يذكر جميل أن الزوج تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما . وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطاً يربط بينهما ، كذلك الرباط الذى يربط بين الزوجين ، وكان إذا غضب مع معشوقته يرد عليها هذا الرباط ، كما يطلق الرجل امرأته ، فالرماح بن مالك القيسى غضب مع معشوقته فقال لها : « الوصل عليك مردود »

فقالت له : « ماقضى الله فهو خير » . وتنتهى بعض القصص بنوع من الخيال يومئ إلى انتصار الحب على الجاه والثروة ، وعلى العادات والتقاليد ، فعروة وعفراء حين حال المال بينهما فى الحياة فرفض الأب أن يزوجه منها لفقره ، يتعانقان بعد الموت على هيئة شجرتين ملتفتين ، كانت المارة تنظر إليهما ، ولا يعرفان أى ضرب من النبات . وعتبة وريا ، حين حالت العادات بينهما وبين إكمال عرسهما ، نبتت على قبرهما شجرة عليها ألوان من الورق يقال لها شجرة العروسين .

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب ، فمنهم من درس الغزل كالدكتور أحمد الحوفى ، ومنهم من درس الحياة العاطفية كالدكتور محمد غنيمى هلال ، ومنهم من درس الحب العذرى كالأستاذ موسى خليل سليمان والأستاذ أحمد عبدالستار الجوارى ومنهم من درس حب ابن أبى ربيعة وشعره كالدكتور زكى مبارك . . . إلخ .

وهناك جانب أريد أن أهتم به وهو « قصص الحب العربية » وهو جانب لايقل أهمية عن الجوانب السابقة التى اهتم بها الباحثون ، وهو فى الوقت نفسه يقوم دليلا عمليًّا أمام الاتهامات التى اتهم بها العرب ، وأنهم جنس أدنى من الجنس الآرى ، لا يعرفون القصة ولا الخيال المبتكر .

٢

وأعنى بتلك القصص هذه الأخبار التى كانت تدور حول فريق من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون ، ومنهم

من هو مجهول مغمور كأن يكون أعرابيّا . وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص كانت معروفة منذ العصر الجاهلى ، وكان لها رواتها وقصاصها ، ولها مستمعوها وطالبوها .

وهذه النظرة إلى هذه الأخبار ، وأنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية وأنها حكايات شاعت بين الناس ، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح ، وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلى . فإن قيساً المجنون قال : إنه رأى ليلى فقط ليلة الغيل . ولكن الناس قد تزيدوا فى ذلك — هذه النظرة تفسر الاضطراب فى الروايات التى قد تسند خبراً إلى قيس ، ثم نراه مسنداً إلى جميل . أو شعراً إلى عروة ، ثم نراه منسوباً إلى ابن ذريح . . إلخ . وهذه النظرة تنتشل فريقاً من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيد والاضطراب كما احتار الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى أمام هذه الأخبار فى كتابه « الحب العذرى » .

٣

على أن هناك فريقاً من الباحثين ، نظر إلى هذه الأخبار تلك النظرة وذلك فى أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب ، أو تنفرد بها رسالة .

فالدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « الغزل فى العصر الجاهلى » حين تعرض لحياة العذريين وما روى عنهم قال : « ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل ، التى تروى عن حياة هؤلاء المحبين ، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات ، لذا نجد اختلافاً فى الروايات وتناقضاً أحياناً ، ونجد

تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر » (ص ٢٠٥ من الطبعة الثانية) .

والأستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التى شاعت فى العصر الأموى . فذكر أن أخبار حب جميل وبثينة ، قد استولت على خيال الشعب العربى حتى صنع منها قصة غرام . وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتتزايد باطراد حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية . ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح ، وقد ساق صاحب الأغانى أخباره فى إطار من البواعث الضعيفة فى إحكامها الفنى ، ثم رأى أن ما ساقه الرواة من أخبار ابن ذريح أعلى درجة من أخبار المجنون ، ولكن الأستاذ سنجر (Singar) يرى أن قصة ابن ذريح تعكس أهم عناصر القسم الثانى من قصة تريستان المشهورة . ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصة غرامية . ثم ختم الحديث بوضاح اليمن ، فذكر أنه بطل من أبطال القصص الغرامية ، وأن البواعث التى ذكرتها القصة فى نهاية حياته موجودة إلى الآن عند أهل مهرة فى قصة ذكرها « يان» . (انظر : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/١٩٩ — ٢٠٢).

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصة عند العرب ، منذ عصر ما قبل الإسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر، تحدث فيما تحدث عن «قصص الحب »(The Love Story) فرأى أنها ترجع إلى عهد الأمويين ، وأن مؤلفيها مجهولون ، وأنها تخاطب غرائز الجنس والشر ، وعواطف الحب والشهامة ، لذلك التصقت بذاكرة الشعب ، وكما يقول (F.C. Bartlet) : « نجحت فى إحداث التأثيرات الدرامية على عقول الشعب ، وفى

خلق الدهشة والاستغراب » (انظر: "The Modern Arabic Short Story")

والأستاذ موسى خليل سليمان عقد فى كتابه « الأدب القصصى عند العرب » فصلا للقصص الإخبارى ، وعنى بها الحكايات القصيرة والأسمار الكثيرة ، والنوادر الظريفة ، والأخبار المشتتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول لأنها لم تدون فى مكان واحد معين ولم يكتبها كاتب واحد معروف ، لغرض من الأغراض الأدبية . . إلخ . ثم رأى أن أهم مايلفت النظر من هذه الحكايات لونان : الحكايات الحبية والحكايات الغنائية . ولكنه فى هذا الكتاب اكتفى بدراسة الحكايات الغنائية ولم يدرسها دراسة أدبية ، بل عرض للغناء ، وترجم لأشهر المغنين والمغنيات ، ثم ذكر أن لها فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية . ولكنه لم يطنب فى ذكر هذه الفوائد ، ولا ننتظر منه أن يطنب فى جزء من كتاب تحدث عن الأدب القصصى بوجه عام الدخيل منه والموضوع . على أنه فى كتابه « يحكى عن العرب » أورد نماذج للقصص العربى ، وذكر — فيما ذكر — نماذج للحكايات الحبية ، فعرض لقصة مجنون ليلى ، وقيس ولبنى ، وعروة وعفراء ... إلخ . وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة ، وكان فى تحليله لا يتعمق تعمقاً كبيراً مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية ، وقد ذكر المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن يمر الطالب مروراً عابراً بهذا التراث القصصى الضخم ، ولهذا عرض تلك النماذج خدمة للطالب العربى .

والأستاذ محمد مفيد الشوباشى خصص جزءاً فى كتابه « القصة العربية القديمة » لدراسة قصص الحب العذرى . وعرض — فيما عرض — قصة جميل وبثينة وقصة قيس ولبنى . ورأى أن

العرب فى ذلك أو بعضهم على الأقل ، قد ضارعوا المبرزين من مؤلفى القصص العصرية فى ابتداع الأحداث والمشكلات ، وإماطة اللثام عن كنهها ومضمونها .

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من كتابه «حديث الأربعاء» . فقد رأى أنه اكتشف فناً أدبياً ظهر بعد الإسلام وهو فن القصص الغرامى . ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن ، وتعرض لطائفة من هذه القصص ، وأظهر ما فى بعضها من تكلف وسخف ، وما فى البعض الآخر من جودة وإتقان .

٤

هذه هى أهم البحوث التى دارت حول هذا الموضوع . وهذا الكتاب سار فى الدرب نفسه الذى بدأه هؤلاء السادة الأفاضل ، فدرس قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذى انتشر بين عامة الشعب ، ينبغى أن يدرس ، وأن يكشف عما فيه من بذور فنية . وعن الأغراض التى من أجلها أنشئت بعض هذه القصص وعن الأسباب التى قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس ، وكل ما أرجوه أن أقطع قدراً من الشوط ، وأن ألقى شعاعاً من الضوء .

الفصل الأول

قصص الحب

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أراده « بو » Poe السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية بصدد حديثة عن حكايات ناثانيال هاوثورن Nathanial Hawthorne (١٨٤٢ م) فقد قال : « علينا ألا نكتب أية عبارة — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — منبثقة عن ميل لم يكن موجوداً فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن واضحة المعالم ، غير مهزوزة » . وأكده بعد مرور أربعين عاماً براندر ماتيوس Brander Matheus فى بحثه المشهور عن فلسفة القصة القصيرة ، قال فى الجزء الثانى من هذا البحث : « إن القصة الخليقة بأن تكون قصة شئ آخر أسمى من أن يعتبر قصة ذات حجم قصير . القصة القصيرة الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساساً فى الوحدة العامة للانطباع ، بعبارة دقيقة وموجزة. . ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالباً ماتتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى الكلاسيكى ، والذى يظهر فى فعل واحد ، فى مكان واحد وزمان واحد . والقصة القصيرة أيضاً تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد » .

لست أقصد هذا المعنى ، إذ أنه لم يكن معروفاً فى العالم قبل

القرن التاسع عشر . وإنما أقصد ذلك المعنى الذى جاء فى القواميس العربية لهذه المادة . وأعنى تلك الطبيعة الخاصة للقالب القصصى العربى .

فى لسان العرب تحت مادة (قصص) : «والقصة الخبر وهو القصص ، وقص على خبره يقصه قصًّا وقصصاً أورده ، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التى تكتب . . وتقصص كلامه حفظه . وتقصص الخبر تتبعه . والقصة الأمر والحديث ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه . . . والقص البيان ، والقصص بالفتح الاسم . والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها . . . وقص آثارهم يقصها قصاً وقصصاً وتقصصا تتبعها بالليل ، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان . . . قال الأزهرى : القص اتباع الأثر . ويقال خرج فلان قصصا فى إثر فلان وقصا . وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً » .

ذلك هو ما يتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوى لهذه المادة ، فمعناها العام « المتابعة » . فقص آثارهم تتبعها بالليل أو فى أى وقت كان . وتقصص الخبر تتبعه .

ولا نطلب من اللغويين أكثر من هذه المعانى العامة للكلمة . فإن مهمة أصحاب اللغة هى الإشارة إلى ماتثيره الكلمة من صور ذهنية عند أصحاب اللغة ، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال الكلمة ، فإن كلمة « بديع » مثلا فى اللغة غير المعنى المراد لها عند أصحاب البلاغة . وإذاً فمن حقنا أن

نلوم أصحاب البلاغة على تجاهلهم التحديد الفنى لمعنى القصة وكان هناك أكثر من مناسبة تتيح لهم الحديث عن معنى القصة ، فمثلا كان يمكنهم ذلك فى أثناء شرحهم للاستعارة التمثيلية ، وأنها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية قد حصلت وضرب فيها مثل ، كأن تضرب المثل « الصيف ضيعت اللبن » فى حالة تشابه حكاية المرأة مع الرجل العجوز الذى طلب منها الزواج ففضلت عليه شاباً ، ثم حدث أن احتاجت إليه فى أمر ، فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلا .

ومن حقنا أيضاً أن نلوم أصحاب الكتب الأدبية كابن عبد ربه والجاحظ وكان ذا عقلية قصصية شعبية ، إذ لم يتعرض أحد منهم لمعنى القصة ولا لتحديدها الفنى .

وهذا التجاهل فرع من القضية الكبرى وهى ازورار أصحاب البلاغة الفصحى ، وعلماء الأدب الفصيح عن هذا اللون الهام من الأدب .

بل إن الجاحظ فى كتابه العظيم « البيان والتبيين » نلمح فى كلامه السخرية من القصاص ، فكان مرة يتحدث عن جهلهم ، وثانية عن نوادرهم ، وثالثة عن فلسهم . وسخر ابن عبد ربه فى الجزء الثالث من العقد الفريد من القصص ، فتحت عنوان : « مجانين القصص » أورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم .

أمر نحمده لهؤلاء المفسرين ، فقد حددوا معنى للقصة أثناء تفسيرهم للآيات التى وردت فيها هذه الكلمة ، وهذا المعنى ملائم لاتجاههم ، وللغرض الذى يريده أصحاب الدين من القصة .

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية الكريمة : « إن هذا

لهو القصص الحق ... إلخ . » مايلى : «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة » (١) .

بل تقدم المفسرون خطوة أكثر من هذا ، فتحدثوا عن عناصر القصة ، فلا مانع لديهم من أن يكون فى القصة عناصر ليست صادقة صدقاً خارجياً ، بل هى أمور خيالية يؤتى بها للتوضيح والتمثيل. جاء فى الكشاف : «فإن قلت ما معنى ذكر النعاج ، قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ، لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحيي من كشفه فيكنى عنه ، كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته . . إلخ . فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم ، قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوروها فى أنفسهم ، وكانوا فى صورة الأناسى ، كما تقول فى تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون وأنت تشير إليها ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد ، وتقول أيضاً فى تصويرها : لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها » (٢) .

فالزمخشرى يرى أن القرآن قد يلجأ إلى عناصر توضيحية ،

---

(١) التفسير الكبير ٢/٤٧٤ (القاهرة – المطبعة الخيرية – الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ هـ) .

(٢) الكشاف ٣/٣٢٣–٣٢٤ (مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤ هـ) .

يجسد بها قصصه ، ويكشف أحداثه ، وكان النيسابوري أصرح في الإشارة إلى هذه العناصر ، فقد قال : « ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي ، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة ، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ، ولكن مع منازعة الخيال . وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال . ولا شك أن الثاني يكون أكمل ، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره في الكتاب الذي أنزل بياناً لكل شيء »(١) .

ويخطو الزمخشري — رحمه الله — خطوة أخرى ، فيتحدث عن أثر القصة وما تفعله في نفوس النشء فيقول : « فإن قلت لم جاءت عن طريق التمثيل والتعريض دون التصريح (وذلك بصدد حديثه عن تمثل الملائكة في صورة أناس ودخولهم محراب داود عليه السلام يختصمون إليه في أمر النعاج ويلمحون بذلك إلى أمر داود مع امرأة أوريا) . قلت : لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه ، من أن يبادره صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة ، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه وذلك أزجر له ، لأنه ينصب ذلك مثالا

---

(١) غرائب القرآن ١ / ١٩٩ (مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ) .

لحاله ومقياساً لشأنه ، فيتصور قبح ماوجد فيه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة» (١).

كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات ، فتدفعهم إلى البحث عن القصة وعناصرها التي تكون لها الجمال الفني الرائع . ولكنهم وقفوا عند هذا الحد ، وكأن الأدب لا يعرف من أنواع القصة إلا القصة الدينية ، وكأن المفسرين هم فقط المسئولون عن القصص .

وغلبة المعنى الديني على القصص تلمحها أيضاً في المعاجم العربية ، فلو وفقها الله وأرادت أن تتوسع في الحديث عن القصص ، فإنها تتكلم عن القصص الدينية ، جاء في اللسان: « وفي الحديث لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال» ، أي لا ينبغي ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا ، وإما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسباً ، أو يكون القاص مختالا يفعل ذلك تكبراً عن الناس ، أو مرائياً يرائي الناس بقوله وعمله لا يكون وعظه وكلامه حقيقة وقيل أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها في الأول ويعظون الناس فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة . وفي الحديث القاص ينتظر المقت لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان ، ومنه الحديث إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا ، وفي رواية لما هلكوا قصّوا ... »

ويخيل للقارئ في كتب المفسرين وفي المعاجم وفي كتب الأدب أن كلمة « قصة » قد تخصصت بعد نزول القرآن ، فبعد أن كانت عامة تطلق — فيما تطلق — على « الأمر والتي تكتب »

---

(١) الكشاف ٣/٣٢٢ (طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ).



كما يقول صاحب القاموس ، أصبحت ترادف كلمة وعظ ، أى الأمر الذى يلين قلوب الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة ، حتى إن الزمخشرى فى أساس البلاغة يجعل من المعانى الحقيقية لهذه المادة ، ذلك المعنى الذى نستطيع أن نلمحه من قوله : «والقصاص يقصون على الناس مايرق قلوبهم».

وقد كثر استعمال هذه المادة « قصة » وخصوصاً بعد نزول القرآن ولجوئه إلى القصص كوسيلة للتأثير على القلوب ، وقد استخدم القرآن هذه المادة فى آياته أكثر من سبع وعشرين مرة وذلك على حسب الإحصاء الذى ورد فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

فاستخدام هذه المادة فى القرآن الكريم ، وورودها فى نصوص أدبية وفى كتب الأدب والتفسير ، وفى المعاجم — كل هذا جعلنى لا أجد غضاضة فى إطلاق هذه المادة على هذه الحكايات التى شاعت فى الأدب العربى عن العشاق وما جرى لهم .

ومن ناحية ثانية فإن كلمة « قصة » — فى ظنى — أنسب من استخدام كلمة سمر ، أو خرافة ، أو خبر ، أو حديث ، أو حكاية .

فإن السمر : يعنى — فيما يعنى — الليل وحديثه كما جاء فى القاموس ، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث والقصص التى يسمر بها الناس فى حياة الصحراء كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية .

أما الخرافة : فإنها — وإن كان مصدرها — أن رجلاً من عذرة

—القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصدد الحديث عن قصصهم— استهوته الجن فكان يحدث بما رأى ، فكذبوه وقالوا : «حديث خرافة» فمع أن مصدرها جل من عذرة لكنها تطلق على حديث مستملح

كذب ، كما ذكر القاموس . « وقد تطور مداولها فأصبح لا يدل إلا على الأساطير المستحيلة ، إذا قوبلت بغيرها من الحكايات التى يقبلها العقل وإن كانت من نسيج الخيال »[١].

أما الخبر والحديث : فيطلقان فى المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين ، فالحديث هو الخبر[٢] ، وعن ابن سيده أن الخبر هو النبأ[٣] . ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص وهو اصطلاح الأصوليين ، إذ يعنى بهما ماينسب إلى النبى عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير . فيستحسن — إذن — ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحى الذى يسرع إلى الذهن بمجرد التلفظ بهما ، ويبحث عن مادة أليق بالفن وأدخل فيه .

أما كلمة « حكاية » فلم تستعمل فى «اللسان» بمعنى القصة ، فما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة : « الحكاية كقولك حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه . . . والمحاكاة المشابهة، تقول : فلان يحكى الشمس ويحاكيها بمعنى » . وتلخص دائرة المعارف الإسلامية المعانى التى كانت تطلق على الحكاية فى القرون الأربعة الأولى من السنة الهجرية ، فتقول : « مما تقدم تبين أن كلمة حكاية تطابق الكلمة اليونانية « υιυζβις » ومن ثم جاءت جميع معانيها فهى أولا تأتى بمعنى المحاكاة رغبة فى التسرية ، والحاكية المحترف هو الذى يقلد أيضاً . ثم ترد بمعنى رواية القول ، فنقول : حكيت عنه الحديث حكاية . وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شىء يحاكى آخر لشبه بينهما » . وإذا صح ماجاء فى هذه الدائرة من أن الحكاية لم

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية مادة « الحكاية » .
(٢) لسان العرب مادة « حدث » .
(٣) المرجع السابق مادة « خبر » .

يكن من معانيها القصة في القرون الأربعة الأولى على الأقل ، فإن الرازى حين يقول : «وإنما سميت الحكاية قصة ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً » — يجعل الأخبار التى تروى عن الأمم السالفة حكايات ، ثم أطلق عليها لفظ قصة ، لأن الحكايات يتبع بعضها بعضاً مع أن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الأخبار يسميها القرآن قصصاً . ثم أطلق على تلك القصص — فى وقت متأخر يحدده بعضهم بعصر الحريرى — حكايات ، لأن الذى يقص القصص — على ما أرى — يحاول أن يحاكى فى قوله الأصل الذى وقعت فيه ، وهذا التعليل يصدق إن كان للحكاية أصل تحاول أن تقلده . أما إذا كانت بنت القريحة فإننى أرى أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التى لها أصل ، ثم أصبح يدخل فى مدلوله — من باب الغلبة — القصة التى لا أصل لها .

وفذلكة الموضوع أن الكلمات : خبر وحديث وحكاية وقصة تفيد معنى واحداً ، ففى تزيين الأسواق عقد مؤلفه عنواناً « أخبار المجنون وصاحبته ليلى » ، ثم قال فى أثناء هذه الأخبار : « وسيجىء ذكر ما رأى له من أشعار أورده آخر القصة » وفى كتاب « قصص الأنبياء » أورد الكسائى كل قصة تحت عنوان « حديث » وابن المقفع يستعمل كلمة « حكى » لما أورده من إحدى القصص .

ولكنى مع ذلك أوثر كلمة «قصة» على غيرها ، لأنها أقرب إلى محيط الأدب . ولأن كلمة خبر وحديث قد غلب عليهما المصطلح الدينى . ولأن كلمة حكاية لم تستعمل — أو على الأقل لم تشتهر — بمعنى القصة فى العصر الأموى ، ذلك العصر الذى ازدهرت فيه قصص الحب كما بينت فى رسالتى للماجستير .

على أننى أعود فأكرر أننى لا أعنى بالقصة ذلك المعنى الحديث الذى قال به « بو » مثلا . إذ لا أطالب الأقدمين بشىء قد اخترعه المحدثون .

وخاصة أن فن القصة فن سريع النمو ، وإنه لتشتتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب ، فمن كلاسيكية ، إلى رومانتيكية إلى واقعية وطبيعية إلى نفسية إلى اللامعقولية . . . إلخ . وكل مذهب من المذاهب له فهم خاص للقصة يتمشى مع نظرته وبنائه الفلسفى .

وإنما أعنى معنى يتفق وطبيعة القصة العربية ، ويتمشى مع نسق هذه الأخبار الغرامية .

على أى حال انتشر بين العرب – والطبقة الشعبية منهم بنوع خاص – نوع من القصص تدور حول العشاق يتسامرون بها فى مجالسهم وحول النيران وبجوار الخيمة . وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشاراً واسعاً ، حتى إن ابن داود لم يجد فائدة فى ذكر كثير من هذه الأخبار فى كتابه « الزهرة » ، لأنها على حد قوله : « قد كثرت فى أيدى الناس فقل من يستفيدها » . وألفت كتب كثيرة حول هذا الموضوع أغلبها فقد . فقد مات رجل من بنى أسد بسبب عشق جارية فصنعوا له كتاباً فى ذلك مثل كتاب جميل وبثينة وعفراء وعروة وكثير وعزة . وابن النديم فى الفهرست يذكر ثبتاً بأسماء تلك الكتب يزيد على مائة وستة وثلاثين كتاباً ، وداود الأنطاكى ينقل عن كتب كثيرة فى كتابه « تزيين الأسواق » تزيد على ثمانية عشر كتاباً ، وابن أبى حجلة فى كتابه « ديوان الصبابة » ينقل عن كتب كثيرة من هذا النوع .

وقد نافست هذه القصص الغناء والشعر ، فمعبد يذكر أنه جاء إلى مكة والتقى بالغريض فغناه لحناً فى شعر جميل ثم غناه الغريض أيضاً لحناً فى شعر جميل ، ثم بعد ذلك أراد أن يعرف خبر جميل وبثينة فقال : « ليتنى عرفت إنساناً يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر ، فأكون قد أخذت بفضيلة الأمر كله فى الغناء والشعر » فسأل عن ذلك فإذا الحديث مشهور ، وقيل له : « إن أردت أن تخبر بمشاهدته فأت بنى حنظلة فإن فيهم شيخاً

منهم يقال له فلان يخبرك الخبر ، فأتى الشيخ فسأله فقص على معبد قصة رائعة حدثت فى الربيع بين جميل وبثينة بمحضر من هذا الشيخ »[١] .

ونقرأ كتب الأدب فنجد الناس يحرصون على هذه القصص ، ويفتشون عنها ويرجعون إلى أهل الذكر ليفيضوا لهم فيها ، فعبد الملك بن مروان يسأل كثيراً عن أعجب خبر له مع عزة فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة [٢] . ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك ، فيقول له : « حدثنى يانصيب ببعض مامر بك » فيقص عليه قصة حبه لجارية خطبها فأبت أن تتزوجه لسواده ، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد فقبلته [٣] . ويدخل على عبد العزيز بن مروان فيسأله : هل عشقت قط ؟ فيقص عليه قصة عشقه لأمة من بنى مدلج [٤] . ويقف الناس بباب بعض الولاة ويطول وقوفهم ، ويصيبهم الضيق وإذا بأعرابى طريف يتغلب على هذا الضيق فينادى : « من أراد أن يسمع العجائب فليدن منى » ثم يقص عليهم قصة حبه لأم جحدر [٥] .

فكثير ونصيب وهذا الأعرابى ماهم إلا أفراد من تلك الفئة التى عندها كثير من هذه القصص ، يسألهم الناس عنها .

وهذا الكتيب سيكشف عن شىء من طبيعة هذه القصص ، فيتحدث أولا عن أغراضها ، ثم يتتبع ثانياً تطورها على مختلف العصور وفى شتى المناحى .

بقيت كلمة أخيرة إذ أن دراستى لهذه القصص ستوسع المعنى

---

(١) انظر هذه القصة كاملة فى الأغانى ٢ / ١٣٩ « طبعة ساسى » .
(٢) المرجع السابق ٩ / ٢٩٩ « طبعة دار الكتب » .
(٣) المرجع السابق ١ / ٥٤ .
(٤) المرجع السابق ١ / ٢٧٥ .
(٥) تزيين الأسواق ١ / ٣٧ (مطبعة بولاق ١٢٩١ هـ) .

الضيق الذى تصوره الباحثون لأنواع النثر ، فهم فى دراستهم وفى كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء ، وعن الرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التى فيها تأنق وصناعة وأرستقراطية .

وفاتهم أن هناك نوعاً من النثر فيه شعبية وديمقراطية ، كان يجرى على ألسنة العامة فى يسر وسلاسة وبعد عن التأنق والصناعة .

وربما كان هذا النوع من النثر أصدق فى الدلالة على نفوس منشئيه ومتلقيه من هذا النوع الذى نشأ كثير منه فى بلاط الخلافة وفوق أخشاب المنابر .

والحق أننا فى حاجة إلى تخطيط جديد لدراسة النثر فى أدبنا العربى متسم بالنظرة الكلية التى تلتفت إلى أدب الشعب بجانب أدب الخاصة . وبخاصة فى ذلك العصر الذى يتسم بالاشتراكية والتسمع لنداءات الطبقة العاملة . ويتخلص من تلك الدائرة الضيقة التى حصر فيها الباحثون أنفسهم الأمر الذى دعا البعض إلى اتهام الأدب العربى بالعقم والتكلف(١)

وهذا الإهمال لذلك الجانب الحيوى — من النقاد والمثقفين — أدى إلى أن هذه القصص الشعبية أخذت تنمو فى بطء وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة .

---

(١) انظر مقالا لى نشر بمجلة المجلة (نوفبر سنة ١٩٦٤) «القصة العربية القديمة» .

أغراض قصص الحب

ربما كان لبعض هؤلاء المحبين وجود تاريخى ، فقد يكون التاريخ شاهد يوماً قيس بن الملوح ، أو قيس بن ذريح .

على أن الذى أشك فيه هو تلك الحكايات والأساطير التى دارت حولهم فإن عقل المؤرخ لايستطيع أن يضفى على هذه القصص صفة الصدق الواقعى والوجود التاريخى .

وكل ماهنالك أن هذه الأسماء اشتهرت وذاعت ، فانتقلت من مجال الدلالة على شخصية بعينها إلى مجال الرمز لأشياء يحكيها الناس ويقصون حولها الغرائب والمخترعات . جاء فى الأغانى أن ابن المولى أنشد لنفسه :

وأبكى ، فلا ليلى بكت من صبابة　　إلىّ ، ولا ليلى لذى الود تبذل
وأخنع بالعتبى ، إن كنت مذنباً　　وإن أذنبت ، كنت الذى أتنصل

فقال له أبو السائب وعبيد الله بن مسلم بن جندب : من ليلى هذه حتى نقودها إليك ؟ فقال لهما : ما هى والله إلا قوسى هذه سميتها بليلى .

وبعض الشعراء قد اعترف بأن هذه الأخبار من خياله واسترساله فحين وقفت ليلى الأخيلية على قول توبة :

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه　　وأطراف عيدان شديد سيورها

غضبت وأمسكت عن كلامه برهة فتوسل إليها وعرض عليها أنه سيسقى نفسه السم إن لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها بحيث يخفون عليه . فلما آنسته قالت : أى خدر دخلت معى حتى تقول ماتقول ؟ فقال :

هذا استرسال الشعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنصل، ففرحت بسماع أهلها ذلك. ومعاوية بن أبى سيفان كان يدرك أيضاً تزيد خيال الشعراء والقصاص فى هذا، فحين شاعت قصة أبى دهبل مع عاتكة استدعاه معاوية وسأله عن ذلك فتبرأ منه . فقال له معاوية : أما من جهتى فلا خوف عليك لأنى أعلم صيانة ابنتى نفسها وأعلم أن فتيان الشعراء لم يتركوا أن يقولوا فى النسيب فى كل من جاز أن يقولوه فيه .

وكثير من القدماء لم يطمئنوا إلى هذه الأخبار، فداود الأنطاكى يذكر أن بعض أخبار قيس لم تصح عنده مثل خبر قبضه على الجمر بكلتا يديه حتى احترقتا، ومثل خبر ذهابه إلى ليلى يتمرض منها سمناً، فخرجت إليه بنحى وجعلت تسكب فى وعائه، وهما يتحادثان حتى غرقت أرجلهما ومثل خبر مجيئه إلى ليلى يستقبس ناراً فكان يتحدث معها ويقطع من برد عليه يعلف النار، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى حتى صار عرياناً . وصاحب الأغانى يذكر قصة حب لجارية التقى بها الأحوص ومعبد على غدير وكانت تنشد شعراً للأحوص ثم عقب على ذلك بقوله : « وليس يشبه الشعر شعر الأحوص ولا هو من طرازه . وكذلك ذكر عمر بن شبه فى خبره » .

وهذه الأخبار كان سبيلها إلينا الرواية والرواة .

والرواة لم يكونوا يتحرون الدقة فى أمثال هذه الأخبار التى يقصد بها إلى التسلية والظرف وإطراف العامة. وإليك مثالا على أنهم لم يكونوا يتحرون الدقة والتحديد . فإننا نعرف أن قيساً لم يكن ابن عم لبنى ، بل إن أباه عارض فى تزويجه منها لأنها غريبة ، وهو يريد أن يزوجه إحدى بنات عمه ، ولكننا نقرأ فى مصارع العشاق مايفيد أن لبنى كانت ابنة عم قيس فقد دخل عليها زوجها وهى تمسك بغراب وتنشد شعراً ، فسألها عن

ذلك فقالت : « دعانى أن ابن عمى وحبيبى قيساً أمرهن بالوقوع فلم يقعن » .

وكان الرواة حين أرادوا جمع اللغة ومعرفة أخبار العرب يشافهون الأعراب وينقلون عنهم . وكان الأعراب يعرفون شغف هؤلاء بهذه الأخبار وشدة ولعهم بها فكانوا يتزيدون عليهم ويختلقون لهم الحكايات ، ليروجوا بضاعتهم وليحسنوا فى أعين هؤلاء الرواة ، فحين ورد داود بن متمم ابن نويرة إلى البصرة جعل أبو عبيده وابن نوح يسألانه عن شعر أبيه. فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه وكره أن تنقطع عناية الرواة به ، أخذ يضع على أبيه ما لم يقل . وحماد الراوية كان يكذب ويتزيد فى أخباره كما ذكر ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » .

على أن الأمر لم يقف عند تكذيب لأخبار قيلت حول فريق من الشعراء المشهورين ، بل تعداه إلى نفى شخصيات بعينها ، حيكت حولها أخبار كثيرة . فقيس ذلك المجنون الذي اشتهر أمره بين الناس ينكره فريق من الناس كالأصمعى . وقد نفى عامرى أن يكون قيس من قبيلتهم المعروفة بالجلد وقال : « انما تموث من الحب هذه اليمانية الضعاف قلوبهم » ومن الرواة من يزعم أن هذا الشعر لفتى من بنى مروان كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فاستتر وراء هذا الاسم ونظم كل الأشعار التى تنسب إلى المجنون ، والأصمعى يقول : « رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية فإنهما وضعهما الرواة » .

واشتهرت هذه القصص بين الناس ولقيت رواجاً واسعاً عند العامة ، فانطلق كثير من المؤلفين ، يرضون هذه الحاجة العارمة ، وجعلوا يكتبون كتبا عن هؤلاء العشاق ، فظهرت أسماء لمؤلفين ألفوا حول هذه الأخبار مثل : عيسى بن داب وهشام الكلبى والهيثم بن عدى وغيرهم .



وقد أورد ابن النديم ثبتاً بتلك الكتب فذكر تحت عنوان: «أسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام» وألّف فى أخبارهم نحواً من اثنين وأربعين كتاباً . وذكر تحت عنوان : «أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر » نحواً من ثمانية وثلاثين كتاباً . وذكر تحت عنوان: «أسماء الحبائب المتظرفات» نحواً من اثنى عشر كتاباً . وذكر تحت عنوان «أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس » نحواً من ستة عشر كتاباً . ثم ختم هذا بقول محمد بن إسحاق : «كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها مشتهاة أيام خلفاء بنى العباس ولا سيما فى أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا ، وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه أحمد بن محمد بن دلان وآخر يعرف بابن العطار وجماعة » .

وكل ذلك لا يهمنى فى شىء . لا يهمنى أن يكون لهذه القصص صدق واقعى ووجود تاريخى ، فقد يهم هذا رجلا مؤرخاً ، أما فى كتابى هذا فإنى أتجاوز ذلك إلى أمر آخر .

لا يهمنى أن يكون قيس أو جميل أو عروة قد وجدوا تاريخياً . وإنما الذى يهمنى هنا أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية ، ولهذا لن أتطلب منها الصدق الواقعى والوجود التاريخى ، وإنما سأسلك مسلك باحث الأدب ، فأنظر ما فى هذه القصص من دلالات أدبية وإشارات فنية .

فمثلا لن أنظر إلى كتاب « الأغانى » أو «تزيين الأسواق » على أنهما كتابا تاريخ أولا وقبل كل شىء ، بل سأنظر إليهما على أنهما كتابا أدب أولا وقبل كل شىء . وربما كانت هذه النظرة هى التى أرادها المؤلفان . فالأنطاكى يرى أن الغرض من كتابه هو إراحة النفس بالأخبار ولطائف الحكايات والأشعار ، حتى تنشط وتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب . وأنه حين اغترب بمصر وأصبح

لا يجد - وهو الغريب - من يؤنسه رأى أن يريح نفسه فيمتطى غارب الأدب ووقع اختياره على اختصار أسواق الأشواق . وأبو الفرج يتحدث فى مقدمة كتابه عن منهجه وأنه لم يرد ترتيب الكتاب على طرائق المغنين أو طرائق الغناء « وإذا كان هذا هكذا ، فما رتبناه أحلى وأحسن ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره ، ومن قصة إلى سواها ، ومن أخبار قديمة إلى محدثة . ومليك إلى سوقه وجد إلى هزل ، أنشط لقراءته وأشهر لتصفح فنونه » .

فإذا اتفقت معكم على هذا المنهج ، وهو أننى لا أريد من قيس أو غيره شخصيته التاريخية وإنما أريد شخصيته القصصية الأدبية — إذا اتفقت معكم على هذا فاسمحوا لى أن أنتقل إلى نقطة هى أشد التصاقاً ببحثنا وهى :

هل كان لهذه القصص أغراض ، أو أنها كانت خبط عشواء ، تنبت كنبات الصحراء بدون غاية مرسومة أو هدف معلوم ؟!

١ - قصص لتفسير أبيات شعرية :

تردد الغناء فى أرجاء الجزيرة العربية وملأ أركانها ، فلم يدع شيخاً ورعاً ، ولا حاكماً حازماً ، ولا امرأة محجبة ، إلا وقد مسه هذا الطائف .

وقد أدى الغناء بدوره إلى شيوع الشعر الغنائى ، الذى يبدئ ويعيد فى قصة الحب ، فغلب على الحجاز فى ذلك الحين هذا النوع من الشعر ولم يترك مكاناً مرموقاً لشعر الهجاء ، أو نصيباً موفوراً لشعر المديح أو لشعر السياسة . حتى إن بعض المشايخ المحافظين كأبى الأسود الدؤلى ، وبعض الزهاد الورعين كالقس كانت لهم أشعار تغنى وتلحن . وشاع هذا الشعر بين طبقات الشعب حتى رأينا عجوزاً تحمل روث البهائم تنتقد

أبياتاً لكثير وتفضل عليه امرأ القيس فيرشوها بمطرفه .

وفى بعض هذه الأشعار بذور حكايات وقصص . كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته وما لاقى من الصعاب . وحين انتشرت هذه البذور وتلك الإشارات أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التى تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض .

وهذا يكشف لنا عن السر الذى نلاحظه فى بعض القصص ، إذ يلاحظ أن أشعارها جيدة وقوية ، وأن هيكل الحكاية فى درجة أقل جودة وقوة . وتفسير ذلك سهل وهو أن تلك الأشعار أنشدها شعراء معروفون قد وهبوا تلك الطاقة الشعرية ووقفوا أنفسهم على النمو بهذه الموهبة ، فهم من طبقة الخاصة . أما واضعو بعض هذه القصص فقد يكون من طبقة العامة الذين اختصموا حول أشعار تلك الطبقة وأرادوا تفسيرها وشرحها .

١ ــ أنشد كثير تلك الأبيات :

وقضّين ما قضين ثم تركْننى ... بفيفا خريم ، قائماً أتلدد
تأطرْن حتى قلت لسن بوارحاً ... وذبن كما ذاب السديف المسرْهد
أقول لماء العين : أمعن لعله ... لما لا يرى من غائب الوجد يشهد
فلم أر مثل العين ضنت بمائها ... علىّ ، ولا مثلى على الدمع يحسد
وبين التراقى واللهاة حرارة ... مكان الشجى ، ما إن تبوح فتبرد

قال كثير هذه الأبيات وشاعت بين الناس ، وفيها حديث عن فيفا خريم وعن بكاء كثير صاحب عزة وعن خيبته وحسرته ، فلا أقل من أن يأخذ القاص أو الخيال الشعبى هذه المواد فيحوك حولها قصة ، وهذا نصها كما جاءت فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة :

« خرج كثير إلى مصر وعزة بالمدينة فاشتاق إليها ، فقام إلى بغلة

له فأسرجها وتوجه نحو المدينة ولم يعلم به أحد . فبينا هو يسير فى التيه بمكان يقال له : فيفا خريم ، إذا هو بعير قد أقبلت من ناحية المدينة ، فى أوائلها محامل فيها نسوة وكثير متلثم بعمامة له وفى النسوة عزة فلما نظرت إليه عرفته وأنكرها ، فقالت لقائد قطارها : إذا دنا منك الراكب فاحبس . فلما دنا كثير حبس القائد القطار ، فابتدرته عزة فقالت من الرجل ؟ قال : من الناس . قالت : أقسمت . قال : كثير . قالت : فأين تريد فى هذه المفازة ؟ قال : ذكرت عزة وأنا بمصر ، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التى ترين . قالت : فلو أن عزة لقيتك فأمرتك بالبكاء ، أكنت تبكى ؟ قال : نعم . فنزعت عزة اللثام عن وجهها وقالت : أنا عزة ، فإن كنت صادقاً فافعل ماقلت . فأفحم . فقالت للقائد : قد قطارك . فقاده . وبقى كثير مكانه لايحير ولا ينطق حتى توارت . فلما فقدها سالت دموعه وأنشأ يقول : وقضين ماقضين ثم تركننى . . . . . الأبيات » .

وواضح أن هذه القصة موضوعة لتفسير تلك الأبيات ، وإلا فانظر إلى تلك المصادفة العجيبة التى تجمع بين كثير وعزة فى التيه ! وإلى هذا الطلب الغريب المضحك الذى طلبته عزة من كثير ، وماذا تجد فى بكاء كثير ؟! وإلى بلاهة كثير الذى لبط مكانه وترك حبيبته تذوب كما ذاب السديف المسرهد وهو الذى سافر من مصر لأجلها ! وإلى تلك السذاجة التى تبدو فى خيال القاص الشعبى فكأن مصر ضاحية من ضواحى المدينة ، يتذكر الشخص أن له هوى بالمدينة فيقوم إلى بغلته ويسرجها ويسرع نحو المدينة على حاله ولم يعلم به أحد . . ! !

ب ــ أنشد جميل هذه الأبيات :

أبثين إنك قد ملكت فاسجحى   وخذى بحظك من كريم واصل

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد ، تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى حبى كقدر قُلامة فضلا ، وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها ، فهل لك فى اجتناب الباطل

وأبياتاً أخرى ذكرها أبو الفرج يتحدث فيها جميل عن لوم اللائمين وتقريع النسوة له ، وأبياتاً يتحدث فيها عن وعد بثينة إياه وعدم وفائها بهذا الوعد .

فيجمع القاص هذه الأبيات وما فيها من إشارات وينشئ حولها قصة ملخصها أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا فى بعض المواقع ، فأتى لوعدها . وجاء أعرابى يستضيف القوم فأنزلوه وقروه ، فقال لهم : قد رأيت فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متوارين فى الشجر . وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم ، فعرفوا أنه جميل وصاحباه ، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده . فلما أسفر له الصبح انصرف كئيباً سيئ الظن بها ورجع إلى أهله ، فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له : إنما حصلت منها على الباطل وغيرها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظى بها ، فقال فى ذلك الأبيات السابقة .

ولعلكم معى فى أن هذه القصة قد وضعت لوصل الأبيات بعضها ببعض ، وأن واضعها كان طيب القلب ، إذ عز عليه أن ترمى بثينة بعدم الوفاء ، ومن صفات العاشقة فى هذه القصص أن تكون وفية لحبيبها ، فاختلق القاص لها تلك العقبة التى حالت بينها وبين حبيبها ، وبذلك بدت لنا بثينة نقية بريئة وفية بوعدها . ولكن القاص لم يكن موفقاً فى بعض المواقف . فما لزوم أن يستدعى جميل شخصين معه لموعد يحب فيه أن يخلو بمعشوقته؟ ولماذا وقف قوم بثينة مكتوفى الأيدى وقدعرفوا أن جميلا قريب منهم وأن السلطان قد أهدر لهم دمه ؟! وكيف عرف

نساء الحى هذه الحادثة ؟! وهل العربيات بتلك الصفاقة فيلحين جميلا فى هواه ويعرضن أنفسهن عليه بديلا عن بثينة الغادرة ؟! أسئلة لم يوفق الخيال الشعبى فى الإجابة عنها .

٢ ـ قصص للتسلية :

أظلت الحضارة العرب بعد الاسلام ، فتبعها ألوان من الترف واللذات وكثر الظرفاء والمضحكون . ثم قامت القصة بدورها فى التسلية فى مجتمع حضارى .

يجتمع قوم يتنزهون بالعقيق ومعهم ابن عائشة ، وكان عنيداً لايغنى إذا طلب منه ذلك ، فأخذوا يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما عسى أن يهيجوه فيغنى ، ولكنه لم يفعل . ثم قص يونس الكاتب قصة غرام هيجته وجعلته يغنى مما أمتع الناس وجعلهم يقضون يومهم فى فرح وسرور . ولنترك يونس الكاتب يروى لنا هذا الحديث : «كنا يوماً متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من قريش ، فبينا نحن على حالنا إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بنى ليث وهو متوكئ على يده فلما رأى جماعتنا وسمعنى أغنى جاءنا فسلم وجلس إلينا وتحدث معنا ، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه إذا سئل أن يغنى فأقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء ، يستجرون بذلك أن يطرب فيغنى فلم يجدوا عنده ما أرادوا . فقلت لهم : لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل الأحاديث ، فإن شئتم حدثتكم إياه . قالوا : هات . قلت : حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة ، فإذا صبيان يتغاطسون فى غدير . وإذا شاب جميل منهوك الجسم عليه أثر العلة والنحول فى جسمه بين وهو جالس ينظر إليهم ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام وقال : من أين وضح الراكب؟ قلت : من الحمى .

قال : ومتى عهدك به؟ قلت : رائحاً. قال : وأين كان بيتك؟ قلت : بيتى فلان . فقال : أوه. وألقى بنفسه على ظهره وتنفس الصعداء. فقلت : إنه قد خرق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمى تحله   من المزن ما يَروى به ويُسيم
وان لم أكن من قاطنيه فإنه   يحل به شخص علىّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه   لدىّ ، وإن شط المزار ، نعيم
ومن لامنى فيه حميم وصاحب   فرد بغيظ صاحب وحميم

ثم سكن كالمغشى عليه . فصحت بالنسوة فأتين بالماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب القريب رأى خشوعى   وأنفاسى تزين بالخشوع
ولى عين أضر بها التفانى   إلى الأجراع مطلقة الدموع
إلى الخلوات يأنس فيك قلبى   كما أنس الغريب إلى الجميع

فقلت له : ألا أنزل فأساعدك ، أو أكر عودى على بدئى إلى الحمى ، إن كانت لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جزيت خيراً وصحبتك السلامة امض لطيتك ، فلو أنى علمت أنك تغنى عنى شيئاً لكنت موضعاً للرغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة ، ولكنك أدركتنى فى صُبابة من حياتى يسيرة . فانصرفت وأنا لا أراه يمسى ليلته إلا ميتاً . فقال القوم : ما أعجب هذا الحديث ! واندفع ابن عائشة يغنى فى الشعرين جميعاً وطرب وشرب بقية يومه ، ولم يزل مغنياً إلى أن انصرفنا » (١) .

وواضح أن هذه القصة موضوعة للتسلية ، فقوم يتنزهون بالعقيق ، فيتحدثون بأحاديث جميل وكثير وغيرهما من العشاق الذين يحلو ذكرهم

---

(١) انظر الأمالى ١/ ٣٧ .

فى هذه الأويقات ويقص يونس الكاتب حديثاً عن أعرابى يأكل كل الأحاديث ، فيهيج ابن عائشة ، ويغنى بالشعر الذى ورد فى القصة ، ويطربون ويشربون .

فالقصص فى هذا المجتمع الحضارى كانت تقوم بدورها وتنافس الشعر والغناء فى مجالس السرور والأنس .

ولم تقف قصص العشق عند حد اتخاذها وسيلة لتفسير المواقف الغرامية التى جاءت فى شعر الشعراء ، أو عند قيامها بدور وظيفى فى مجتمع حضارى بل استغلت لأغراض أخرى . فاستخدمت لأغراض شخصية ، ولمرام شعوبية ، ولأهداف دينية .

٣ — قصص الدعاية :

عرف كثير من الأذكياء قيمة القصة فى الدعاية لفنهم والترويج لشعرهم ، وخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وسط الشعب فاستغلوا القصص ، وحملوها ما يريدون أن يحملوا ، وجعلوها تنتقل وسط الناس ، لاهجة باسمهم ، مذكرة بهم .

(ا) قال حماد الراوية :

« أتيت مكة فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة ، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك . إنه كان لى خليل من عذرة ، وكان مستهتراً بحديث النساء . يشبب بهن وينشد فيهن ، على أنه لاعاهر الخلوة ولا سريع السلوة . وكان يوافى الموسم كل سنة . فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار ، وتوقفت له السمار حتى يقدم ، وأنه راث عنى ذات سنة خبره ، وقدم وفد عذرة فأتيت القوم

أنشد عن صاحبى ، فإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال عن أبى المسهر تسأل ؟ قلت : عنه نشدت وإياه أردت ، قال : هيهات أصبح والله أبو المسهر لا موئسا منه فيهمل ولا مرجوًّا فيعلل ، أصبح والله كما قال:

لعمرك ما حبى لأسماء تاركى صحيحاً ، ولا أقضى به فأموت

قلت : وما الذى به ؟ قال : به مثل الذى بك من طول انهماككما فى الضلال وجركما أذيال الخسار ، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار . قلت من أنت منه يابن أخى ؟ قال : أنا أخوه . قلت : والله ما منعك من أن تركب طريق أخيك التى ركبها ، وتسلك مسلكه الذى سلك ، إلا أنك وأخاك كالوشى والبجاد لا يرقعك ولا ترقعه . ثم انطلقت وأنا أقول :

أرائحة حجاج عذرة روحة ولما يرح فى القدم جعد بن مهجع
خليلين نشكو ما نلاقى من الهوى فتى ما أقل يسمع، وإن قال أسمع
فلا يبعدنك الله خلا فإننى سألقى، كما لاقيت فى الحب مصرعى

فلما حججت وقفت فى الموضع الذى كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين عنق ناقتى وناقته. ثم اعتنقنى وجعل يبكى ، فقلت : ما الذى دهاك وما غالك ؟ فقال : برح العذل وطول المطل ، ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلة ذات بث لقد علمت بأن الحب داء
ألم تنظر إلى تغيير جسمى وأنى لا يزايلنى البكاء
وإنى لو تكلفت الذى بى لعفى الكلم وانكشف الغطاء
إذا العذرى مات بحتف أنف فذاك العبد يبكيه الرشاء

فقلت : يا أبا مسهر ، إنها ساعة عظيمة . وإنك فى جمع من أقطار الأرض ولو دعوت كنت قميناً أن تظفر بحاجتك وأن تنصر على عدوك . قال : فجعل يدعو حتى تدلت الشمس للغروب وهم الناس أن

يفيضوا وسمعته يهمهم ، فأصخت له مستمعاً وهو يقول :

يارب كل غدوة وروحه من محرم يشكو الضحى ولوحه
أنت حسيب الخطب يوم الدوحه

فقلت له : وما يوم الدوحة ؟ قال : سأخبرك إن شاء الله ، إني امرؤ ذو مال كثير من نعم وشاء ، وإني خشيت على مالى التلف ، فأتيت أخوالى من كلب فأوسعوا لى عن صدر المجلس وسقونى بجمة البئر فكانوا خير أخوال حتى هممت بمواقعة إبل لى بماء يقال له الخرزات فركبت وتعلقت معى شراباً كان قد أهداه إلى بعض الكلبيين وانطلقت حتى إذا كنت بين الحى ومرعى الغنم رفعت لى دوحة عظيمة . فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة وتروحت مبرداً ، فنزلت ، فشددت فرسى بغصن من أغصانها ثم جلست تحتها ، فإذا أنا بغبار قد سطع . فتبينت فبدت لى شخوص ثلاثة . فإذا رجل يطرد مسحلة وأتاناً . فلما قرب منى إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء ، وإذا هو تنال فروع شعره كتفيه . فقلت فى نفسى : غلام حديث عهد بعرس فأعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه وأخذ ثوب امرأته ، فما لبث أن لحق بالمسحل ، فصرعه ثم ثنى طعنة للأتان فصرعها ، ثم أقبل وهو يقول :

لطعنهم سلكى ومخلوجة كرْك اللأمين على نابل

قال : فقلت : إنك قد تعبت وأتعبت ، فلو نزلت ، فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، ثم أقبل حتى جلس قريباً منى فجعل يحدثنى حديثاً ذكرت به قول الشاعر :

وإن حديثاً منك لو تبذلينـــه جنى النحل، فى ألبان عوذٍ مطافل

قال : فبينا هو كذلك ، إذ حك بالسوط على ثنيتيه ، فرأيت والله يابن ربيعة ظل السوط بينهما ، فما ملكت نفسى أن قبضت على السوط فقلت : مه . فقال : ولمه ؟ قلت : فإنى أخاف أن تكسرهما فإنهما

رقيقتان . قال : هما عذبتان ، ثم رفع عقيرته فجعل يغنى :

إذا قبل الإنسان آخر يشتهى ثناياه لم يأثم ، وكأن له أجرا
فإن زاد زاد الله فى حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

ثم قال لى : ماهذا الذى تعلقت فى سرجك ؟ قلت : شراب أهداه إلى بعض أهلك ، فهل لك فيه ؟ قال : وما أكرهه . فأتيته به فوضعه بينى وبينه فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولداً أو ذعرها قانص فعلم أين نظرى فرفع عقيرته يغنى :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ، ثم لم يحيين قتلانـا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال وقع رجل منا باليمامة وأنشدنيه. ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسى ، فرجعت وقد جر العمامة عن رأسه وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك ! قال : كيف قلت ذلك ؟ قلت : مما راعنى من نورك وبهرنى من جمالك . قال : وما الذى يروعك من زرق الدواب وحبيس التراب ؟! ثم لاتدرى أينعم بعد ذلك أم ييأس ؟ ثم قام إلى فرسه فلما أقبل برقت لى بارقة الدرع ، فإذا ثدى كأنه حق . قلت : نشدتك الله ، آمرأة ؟ قال: إى والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل. قلت : والله أنا كذلك . قال فجلست تحدثنى ، ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكراً ، واستحسنت والله يابن أبى ربيعة الغدر وزين فى عينى ، ثم إن الله عز وجل عصمنى منه، ثم جلست منها حجرة، فما لبثت أن انتبهت مذعورة ، فلاثت عمامتها برأسها وأخذت الرمح وجالت فى متن فرسها . فقلت : أما تزودينى منك زاداً ، فأعطتنى شباتها فشممت منها كالنبات الممطور . ثم قلت : أين الموعد ؟ فقالت : إن لى إخوة شرسين وأبا غيوراً ، والله لأن أسرك أحب إلى من أن أضرك ، قال : ثم

مضت ، فكان هذا آخر العهد بها إلى يومى هذا . فهى والله التى بلغت بى ماتراه من هذا المبلغ ، وأحلتنى هذا المحل . قال : فقلت : وأنت والله – يا أبا مسهر – ما استحسن الغدر إلا بك . فإذا قد اخضلت لحيته بدموعه . قال : قلت : والله ماقلت لك هذا إلا مازحاً. ودخلتنى له رقة. فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى وشد على ناقته وحملت غلاماً لى على بعير ، وحملت عليه قبة أدم خضراء كانت لأبى ربيعة وأخذت معى ألف دينار ومطرف خز . ثم خرجت حتى أتينا كلباً ، فإذا الشيخ فى نادى قومه ، فأتيته فسلمت عليه . فقال : وعليك السلام ، من أنت؟ قلت : عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى . قال : المعروف غير المجهول ، فما الذى جاء بك ؟ فقلت : جئت خاطباً . قال : أنت الكفء لايرغب عن حسبه والرجل لايرد عن حاجته . قال : قلت : إنى لم آتك فى نفسى وإن كنت موضع الرغبة ، ولكن أتيتكم لابن أختكم العذرى . قال : والله إنه لكفء الحسب كريم المنصب . غير أن بناتى لم يقعن إلا فى هذا الحى من قريش . قال : فعرف الجزع من ذلك فى وجهى . فقال : أما إنى أصنع بك شيئاً لم أصنعه بغيرك أخيرها ما اختارت . قال : قلت : له : والله ما أنصفتنى . قال : وكيف ذلك ؟ قال : كنت تختار لغيرى ووليت الخيار لى غيرك ، فأومأ لى صاحبى أن دعه يخيرها. قلت : خيرها .. فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا ، فارتئى رأيك . قال : فأرسلت إليه : ما كنت لأستبد برأى دون القرشى فخيارى ما اختار . قال : قد صيرت الأمر إليك . فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه وقلت : قد زوجها الجعد بن مهجع وأصدقتها الألف دينار ، وجعلت تكرمتها العبد والقبة وكسوت الشيخ المطرف ، فقبله وسر به .وسألته أن يبتنى بها من ليلته . فأجابنى إلى ذلك ، وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت إليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة فخرج

إلىّ وقد تبين الخذل فى وجهه. قال : فقلت : له كيف أنت من بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال : أبدت كثيراً مما أخفت يوم رأيتها . فقلت : ماحملك على ذلك ؟ فأنشأ يقول :

كتمت الهوى ،إنى رأيتك جازعاً فقلت : فتى بعض الصديق يريد
فإن تطرحنى ، أو تقول فتية يضر بها برح الهوى ، فتعود
فوريت عما بى وفى الكبد والحشا من الوجد برح فاعلمن شديد

قال : فقلت : أقم على أهلك ، بارك الله فيك. وانطلقت إلى أهلى».

ذكرت لك هذه القصة كاملة (١) ، لأنها ثرية ، فيها الكثير من صفات القصص العربى ، وهى نموذج حى لقصص العشق التى ذاعت وشاعت بين جماهير العرب .

ولست أدرى : هل اخترع هذه القصة حماد الراوية الذى كان يكذب ويتزيد فى رواياته ، أو أنها من وحى خيال ابن أبى ربيعة ؟! لست أدرى ،لأن القصة تشف عن مزاج كلا الرجلين ، فقد كان كل منهما مستهتراً ماديا . والمخترع هنا يأبى إلا أن يلوث قصص العذريين بالخمر والسكر والغناء والتمايل تحت الدوحة . ولم يوفق القاص فى رسم هذا الجو الذى يتنافى مع البيئة البدوية والنساء البدويات فهل فى البادية امرأة لها أب غيور وإخوة شرسون ، ثم تخرج للصيد وتفعل فعل الرجل الفارس، ثم تلتقى بأجنبى فتجلس معه تحت ظل شجرة وتطارحه الغزل وتنشده الشعر الغزلى ، ثم تشرب معه الخمر وتميل سكراً . . . إلخ . لاشك فى أن مخترع هذه القصة رجل عاش فى الحضر وشاهد الترف ، فتصور أهل البادية وكأنه يتصور أهل الحضر .

ومن مقدمة القصة يبدو لنا أن القاص قد اخترعها للتسلية وإزجاء

---

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٥٠ .

الفراغ ، فقد اجتمع الناس فى حلقة وأخذوا يتذاكرون أخبار العذريين وعشقهم فقص عليهم القاص تلك الحكاية ، وقد أنصف ابن عبد ربه حين وضعها تحت عنوان « المضحكات » ، وذلك فى الجزء الثالث من العقد الفريد .

ولكن ابن أبى ربيعة ينتهز هذه الفرصة فيدس فى ثنايا القصة حديثاً عن نفسه وافتخاراً بأبيه وتغنياً بجوده وكرمه ودفاعاً عن مسلكه ومذهبه ، فهو شهم كريم ، يسمع عن مأساة صاحبه فيخرج معه ويشد على ناقته ويحمل معه قبة أبى ربيعة ، ويأخذ معه ألف دينار ومطرف خز . ويخرج الرجل فيستقبله استقبال المعروفين غير المجهولين ، ويرحب به ، ويثنى على حسبه وعلى شخصه وتختاره الفتاة وكيلا لها ، فينهى الموضوع كما يحب ، ويرجع إلى أهله ، مفتخراً بنفسه ويقول — كما ورد فى العقد الفريد — :

كفيت الفتى العذرى ماكان نابه ومثلى لأثقال النوائب يحمل
أما استحسنت منى المكارم والعلا إذا صرحت أنى أقول وأفعل

فهذا الفخر بابن أبى ربيعة وبحسبه ، وتلك الخاتمة التى تنتهى بهذه الأبيات — يرجحان أن القصة من صنع عمر .

ويبدو أن عمر كان ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنه ، والترويج لشعره مرة برشوة المغنين والمغنيات حتى ينشدوا شعره كما جاء فى الأغانى ومرة ثانية بإشاعة هذا النوع من القصص التى أكثر من اختلاقها وترويجها .

وهذا مثال آخر من قصصه :

(ب) قال عمر بن أبى ربيعة :

بينا أنا خارج محرماً ، إذ أتتنى جارية كأنها دمية فى صفاء اللجين ،

فى ثوب قصب كقضيب على كثيب ، فسلمت على وقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة ، فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا والله ذاك . قالت : هل لك أن أريك أحسن الناس وجها ؟ قلت : ومن لى بذلك ؟ قالت : أنا والله لك بذلك على شريطة . قلت : وما هى؟ قالت : أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا . قلت : لك ذلك . قال : فاستخرجت معجراً من قصب عجرتنى به وقادتنى حتى أتت بى مضرباً. فلما توسطته فتحت العجارة عن عينى ، فإذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بفرش كوفى ، وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر ، عليها تماثيل ذهب . ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسناً وجمالا. فقامت كالحجلة وقعدت قبالتى وسلمت على . فخيل إلى أن الشمس تطلع من جبينها وتغرب فى شقائق خدها . قالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك يامنتهى الجمال . قالت : أنت القائل :

بينما ينعتننى أبصرننى ... دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : أما تعرفن ذا ... قالت الوسطى : بلى هذا عمر
قالت الصغرى — وقد تيمتها — ... قد عرفناه ، وهل يخفى القمر

قلت : أنا والله قائلها ياسيدتى . قالت : ومن هؤلاء ؟ قلت : والله ياسيدتى ماهو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء . قالت : ياعدو الله ، يافاضح الحرائر ، أنت قد فشا شعرك فى الحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى أخرجنه . فخرجت الوصائف فأخرجنى ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى ، وقادتنى إلى مضربى ، فبت ليلة كانت أطول من سنة . فلما أصبحت بقيت هائماً ، لا أعقل ما أصنع ، فما زلت أرقب الوقت . فلما كان وقت المساء ، جاءتنى الجارية فسلمت على وقالت :

ياعمر ، هل رأيت ذلك الوجه ؟ قلت : إى والله . قالت : فتحب أن أريكه ثانية؟ قلت : إذا تكرمت فتكونين أعظم الناس علىّ منة ، فقالت: على الشريطة . فاستخرجت المعجر ، فعجرتنى وقادتنى فلما توسطت المضرب ، فتحت العصابة عن وجهى ، فإذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدثر ببياض مفروش بفرش أرمنى ، فقعدت على نمرقة من تلك النمارق ، فإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء ستر تتمايل من غير سكر. فقعدت كالخجلة ، فسلمت على . قالت :أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك . قالت : أنت القائل :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى ... على الرمل فى ديمومة لم توسد
فقالت : على اسم الله آمرك طاعة ... وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فما زلت فى ليل طويل ملثماً ... لذيذ رضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد
فلما ازددت منها واتشحت بمرطها ... وقلت لعينى : اسفحا الدمع من غد
فقامت تعفى بالرداء مكانها ... وتطلب شذراً من جمان مبدد

قلت : أنا قائلها . قالت فمن الناهدة الثديين ؟ قلت : ياسيدتى ، قد سبق فى الليلة الأولى . والله ما هو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء . قالت : ياعدو الله ، أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى ادفعنه . فوثبت الجوارى فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية ، فعجرتنى وقادتنى إلى مضربى ، فبت فى ليلة كانت أطول من الليلة الأولى فلما أصبحت أمرت بخلوق فضرب لى وبقيت هائماً . فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية فسلمت علىّ وقالت: ياعمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: إى والله . قالت : فتحب أن أريكه الثالثة ؟ قلت : إذاً تكونين أعظم الناس علىّ منة . قالت : على الشريطة . قلت : نعم . فاستخرجت

المعجر وعجرتنى به ، وقادتنى حتى أتت بى المضرب . فلما توسطته فتحت العصابة عن عينى . فإذا أنا فى مضرب ديباج أخضر مدنر بحمرة مفروش بخز أحمر . وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلمت علىّ . وقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك . قالت : أنت القائل :

نعب الغراب ببين ذات الدملج ... ليت الغراب ببينها لم يشجج
مازلت أتبعهم وأتبع عيسهم ... حتى دفعت إلى ربيبة هودج
قالت : وعيش أخى وحرمة والدى ... لأنبهن الحى إن لم تخرج
فلثمت فاها آخذاً بقـــرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
فتناولت كفى لتعــرف مسها ... بمخضب الأطراف غير مشنج

قلت : أنا قائلها . قالت ياعدو الله أنت الذى فضحتها ونفسك وجهى من وجهك حرام إن عدت إلى ، ياجوارى أخرجنه . فوثب إلىّ الوصائف وأخرجنى ، ودفعنى إلى الجارية فعجرتنى وقادتنى . وقد كنت عند خروجى من مضربى ، ضربت يدى بالخلوق وأسدلت عليها ردائى فلما صرت إلى باب مضربها أخرجت يدى ووضعتها على جانب المضرب وضعاً بيناً ، فلما أصبحت صحت بغلمانى وعبيدى ، ولى ألف عبد: من أتانى بخبر المضرب الذى ضرب فيه بكذا وكذا ، فهو حر لوجه الله . فلما كان فى وقت المساء أتتنى وليدة سوداء فقالت : قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان . فأعتقتها وأمرت لها بمائتى دينار . وأمرت بمضربى فقلع وضرب بحذاء مضربها . وكتب بالخبر إلى عبد الملك ابن مروان . فكتب إليها بالرحيل . فركبت هودجها وركبت فرسى فزاحمتها فى بعض الطريق فأشرفت علىّ من هودجها فقالت : إليك عنى أيها الرجل . قلت : خاتم أو قميص أذكرك به . فقالت لبعض جواريها : ألقى إليه قميصاً من قمصى . فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيك ما صوت الغوانى ... ولا شرب التى هى كالفصوص
أردت برحلتى وأريد حظا ... ولا أكل الدجاج ولا الخبيص
قميص ما يفارقنى حياتى ... أنيس فى المقام وفى الشخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك فى خاصته فدخل إليها ثم قال : يارملة .ألم أنهك أن تطوفى بالبيت إلا ليلا يحفك الجوارى ويحف الجوارى الخدم ويحف الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبى ربيعة. قالت : والله وحياة أمير المؤمنين مارآنى ساعة قط . فخرج من عندها فبصر بمضربى فقال : لمن المضرب؟ قيل: لعمر بن أبى ربيعة . قال : علىّ به . فأتيته بلا رداء ولا حذاء ، فدخلت عليه وسلمت عليه . فقال : ياعمر ، ماحملك على الخروج من الحجاز من غير إذنى ؟ قلت : شوقاً إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلى رؤيتك فأطرق مليا ينكت فى الأرض بيده . ثم رفع رأسه فقال : ياعمر ، هل لك فى واحدة ؟ قلت: وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : رملة أزوجكها . قلت : يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن ؟ قال : إى ورب السماء . ثم قال : قد زوجتكها فادخل إليها من غير أن تعلم . فدخلت عليها فقالت : من أنت هبلتك أمك ؟ قلت : أنا المعذب فى الثلاث ، فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول :

لعمرى ، لقد نلت الذى أرتجى ... وأصبحت لا أخشى الذى كنت أحذر
فليس كمثلى اليوم كسرى وهرمز ... ولا الملك النعمان مثلى وقيصر

فلم أزل معها بأحسن عيشة وغبطة » .

فهذه القصة المترفة قد أشاعها عمر لتمجيد شعره والدعاية لفنه . ولا يمكن أن تقبل كحقيقة تاريخية . ولأمر ما تكررت هذه العبارة من رملة : « أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك » وما الداعى لأن تتفوه رملة بهذه العبارة وهى فى معرض توبيخ عمر وتقريعه ،

وليست فى معرض مدحه والثناء عليه ؟ ولأمر ما يقول عمر : « فصحت بغلمانى وعبيدى ولى ألف عبد » .

والقصة تتفق مع مذهب عمر فى شعره ، ففى شعره يتغزل فيه الفتيات ويطاردنه . وهنا تتعرض له رملة وتستدعيه إلى مضربها وتغرى به جواريها ، حتى الزواج يتم بطريقة نرجسية فجائية ، فيستدعيه عبد الملك ويعرض عليه أن يزوجه من رملة . وهذه النهاية السعيدة تتفق مع مزاج فتى قريش فقد عاش معها بأحسن عيشة وغبطة . ولا ينسى عمر أن يختم القصة – كما ختم القصة السابقة – بأبيات يجعل فيها نفسه مثل كسرى وهرمز والنعمان وقيصر .

(ح) قال رجل من أهل تيماء :

كنت يوماً جالساً مع جميل وهو يحدثنى وأحدثه ، إذ ثار وتربد وجهه فأنكرته ورأيت منه غير ما كنت أرى . ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون حتى أتى بناقة له قريبة من الأرض مجتمعة موثقة الخلق . فشد عليها رحله ، ثم أتى بمحلب فيه لبن فشربه ، ثم ثنى فشربت حتى رويت . ثم قال لى : اشدد أداة رحلك واشرب واسق جملك ، فإنى ذاهب بك إلى بعض مذاهبى ، ففعلت . فجال فى ظهر ناقته وركبت ناقتى . فسرنا بياض يومنا وسواد ليلتنا . ثم أصبحنا فسرنا يومنا كله . لا والله مانزلنا إلا للصلاة . فلما كان فى اليوم الثالث وقفنا إلى نسوة فمال إليهن . ووجدنا الرجال خلوفاً . وإذا قدر لبن ثم وقد جهدت جوعاً وعطشاً فلما رأيت القدر اقتحمت من بعيرى وتركته جانبى ، ثم أدخلت رأسى فى القدر مايثنينى حرها حتى رويت ، فذهبت أخرج رأسى من القدر فضاقت علىّ . وإذا هى على رأسى قلنسوة فضحكن منى وغسلن ما أصابنى . وأتى جميل بقرى . فوالله ما التفت إليه ، فبينا هو يحدثهن



إذا رواعى الإبل ، وكان السلطان قد أحل لهم دمه إن وجدوه فى بلادهم وجاء الناس فقالوا له : ويحك ! انج وتقدم ، فوالله ما أكبرهم كل الإكبار ، وغشيه الرجال فجعلوا يرمونه ويطردونه ، فإذا قربوا منه قاتلهم ورمى فيهم ، وهام بى جملى فقال لى : يسر لنفسك مركباً خلفى فأردفنى خلفه لا والله ما انكسر ولا انحل عن فرصته حتى رجع إلى أهله » .

وهدف هذه القصة هو رسم شخصية بطولية ، وجرت على عادة القدماء فى إظهار البطل فى صورة مبالغ فيها ، فهو شجاع قوى لا تهمه الجماعة ولا المصاعب ، بينا تكون الشخصيات الأخرى ضئيلة القيمة ذات دور ثانوى . فجميل يثور ويربد وجهه ويقشعر شعره ويتغير لونه ، ثم يسرع إلى جمله ويسحب معه تابعه المهرج (الكوميدى) الذى يطيعه طاعة عمياء ويسير جميل فى طريقه لا يحس جوعاً ولا يشعر بظمأ برغم تلك المسافة الطويلة التى يقطعها سواد ليله وبياض نهاره ، حتى إذا غشيه الرجال لم يكبرهم وجعل يقاتلهم ويرمى فيهم ، ثم يلقى بتابعه الكوميدى وراءه ، ويسرع بناقته حتى يرجع إلى أهله .

(د) وكان بعضهم يستغل قصص الحب فى الدفاع عن فكرة يؤمن بها ، ويعتقد أنها لصالحه ، ففى ذات ليلة حاول عبد الملك بن مروان أن يعرض بعبد الله بن جعفر وأن يقلل من قيمة الغناء الذى شاع بين الحجازيين فقال : « قبح الله الغناء ! ما أوضعه للمروءة وأجرحه للعرض وأهدمه للشرف وأذهبه للبهاء ! » . فانبرى ابن جعفر للدفاع عن مذهب الحجازيين واستغل القصص لإقناع عبد الملك ، فقص عليه قصة الفتى الذى كان يهوى جارية مغنية ، وكان يتسمع كل ليلة إلى غنائها حتى الفجر ، فقال : « اشتريت جارية باثنى عشر ألف درهم مطبوعة ، فكان بديح وطويس يأتيانها فيطرحان عليها أغانيهما فعلقت منهما حتى غلبت عليهما . . . فبينا هى عندى على تلك الحال ، إذ ذكرت لى

عجوز من عجائزنا أن فتى من أهل المدينة يسمع غناءها ثم ينصرف فراعيت مجيئه ، فإذا الفتى قد أقبل مقنع الرأس ، فأشرفت عليه وقد قعد مستخفياً فلم أدع بها تلك الليلة وجلست أتأمل موضعه ، فبات مكانه الذى هو فيه ، فلما انشق الفجر اطلعت عليه . فإذا هو فى موضعه فدعوت قيمة الجوارى ، فقلت لها : انطلقى الساعة فزينى هذه الجارية واعجلى بها إلىّ . فلما جاءت بها نزلت وفتحت الباب وحركته ، فانتبه مذعوراً ، فقلت له : لابأس عليك خذ بيد هذه الجارية ، فهى لك وإن هممت ببيعها فردها إلىّ فدهش وأخذه الخبل ولبط به ، فدنوت من أذنه فقلت : ويحك قد أظفرك الله ببغيتك فقم فانطلق بها إلى منزلك ، فإذا الفتى قد فارق الدنيا فلم أر شيئاً قط أعجب منه .

ومن حق عبد الملك ألا يصدق بهذه الحكاية وأن يقسم أنه لايصدقها لولا أن عبد الله قد عاينها (١) ، ومن حقنا نحن ألا نصدق بها وأن نزعم أنهاموضوعة لبيان قيمةالغناءوالدفاع عن المذهب الذىشاع بين الحجازيين.

٤ ــ قصص ذات أغراض تعصبية :

ولم تستغل قصص الحب استغلالا شخصيا فحسب ، بل استغلت لأغراض تعصبية أيضاً .

فقد عرف العرب فى تاريخهم صراعاً بين السادة والعبيد ، وثورات بين بعضهم والبعض الآخر ، فاستخدم كل فريق ماتيسر له من الأسلحة فكانوا ينتحلون الشعر ويختلقون الأحاديث ، تدعيماً لنزعاتهم وتأييداً لميولهم .

---

(١) انظر : العقد الفريد ٣/١٩٩ (المطبعة الشرقية) .

ونال القصص حظها من الانتحال والاختلاق .

(ا) كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين ، وكان لها من قلبه موضع ، فقدم عليه من ناحية مصر جوهر له قدر وقيمة ، فدعا خصيا له وقال : اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها : أتيت به الساعة فجئت به إليك فأتاها فوجد عندها وضاح اليمن ، وكان من أجمل العرب وأحسنهم وجهاً . فعشقته أم البنين فأدخلته عليها ، فكان يكون عندها ، فإذا أحست بدخول يزيد أدخلته فى صندوق من صناديقها . فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته إلى الصندوق ، فرآه الغلام ورأى الصندوق الذى فيه فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها رسالة يزيد ثم قال : ياسيدتى هبى لى منه لؤلؤة . قالت : لا ، ولا كرامة . فغضب وجاء إلى مولاه فقال : يا أمير المؤمنين إنى دخلت عليها وعندها رجل ، فلما رآنى أدخلته صندوقاً وهو فى الصندوق الذى صفته كذا وكذا .. فقال يزيد : كذبت ياعدو الله ، جئوا عنقه . . ثم قام ولبس نعله ودخل على أم البنين وهى تمتشط فى خزانتها ، فجاء حتى جلس على الصندوق الذى وصفه الخادم وقال : يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت ! قالت : يا أمير المؤمنين أدخله لحاجتى ، وفيه خزانتى فما أردت من شىء أخذته من قريب . قال : فما فى هذه الصناديق التى أراها ؟ قالت : حليي وأثاثى . قال : فهبى لى منها صندوقاً . قالت : كلها يا أمير المؤمنين لك . قال : لا أريد إلا واحداً . ولك على أن أعطيك زنته ذهباً وزنة ما فيه . قالت : فخذ ماشئت قال : هذا الذى تحتى . قالت لم يا أمير المؤمنين؟عد عن هذا ، وخذ غيره ، فإن لى فيه شيئاً يقع بمحبتى . قال : ما أريد غيره . قالت : هو لك فأخذه ودعا الفراش وحمل الصندوق ومضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر مافيه . ولما جنه الليل دعا غلاماً له أعجميا وقال له : استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل المصر . فجاءوا بهم فأمرهم فحفروا

له حفيرة فى مجلسه . حتى بلغوا الماء ثم قال: قدموا لى الصندوق . فألقى فى الحفيرة ثم وضع فمه على شفيره فقال : ياهذا قد بلغنا عنك خبر ، فإن يك حقاً فقد قطعنا أثره ، وإن يك باطلا فإنما دفنا خشباً . ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى . فلم ير الوضاح حتى الساعة . فلا والله مابان لها فى وجهه ولا فى خلائقه شىء حتى فرق الموت بينهما .

وأعتقد أن هذه القصة ليس لها صدق واقعى ، فهى تناقض خلق العربيات القائم على العفة أو التستر فى أمثال هذه الموضوعات . وتنافى خلق العربى القائم على الغيرة والأنفة والاندفاع فيما يمس الشرف . وانظر إلى تريث يزيد حين دخل عليها وهو يساومها على أخذ الصندوق ويبذل لها زنته وزنة ما فيه ذهباً . وانظر إلى الحوار الهادئ الذى دار بينهما . وإلى الصبر العجيب الذى جعله يضع الصندوق ولا يفتحه حتى يجنه الليل . ثم إلى هذا الوداع الهادئ الرزين الذى ودع به الصندوق حين ألقاه فى الحفرة .

اللهم إن هذا ليس من خلق العرب ، بل هذا شىء وضع على العرب .

واللهم إن واضع هذا ليس من العرب أيضاً ، وإلا كان قد تنبه لأهم شىء عند العربى وهو اضطرابه الشديد وانفعاله البين فيما يمس العرض ويخدش الشرف ، فمن وضع هذا لم يوفق فى التزوير والتمويه ، فقد وصف العربى هنا وكأنه يصف رجلا أجنبيا .

ولهذا أميل إلى أن هذه القصة قد وضعت بسبب الشعوبية ، فقد أرادوا أن يشهروا بنساء هذا الخليفة الأموى ، فاختلقوا هذه القصة التى تنتقص منه ومن نسائه ، فهم قد عرفوا أن ابن عبد الملك قد قتل وضاحاً هذا لأنه شبب بامرأته وبأخته ، وهم قد عرفوا أن وضاحاً هذا كان رائع الحسن وأنه كان يبرقع وجهه خوف الفتنة بحسنه وخوفاً من العين

وحذراً على نفسه من النساء ، فلا أقل من أن يبنى القصاص على هذه العناصر قصة غرامية تحط من قدر أم البنين ، ولا أقل من أن يختاروا لها شخصية قيل إنها من أولاد الفرس وقيل : بل إنه من حمير مات أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه رجلا من أولاد الفرس ، وشب وضاح فى حجر زوج أمه . ولما كبر جاء أهل بيته من حمير يطلبونه فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه ، فحكم به الحاكم للحميريين ، ومسح على رأسه وأعجبه جماله وقال له : اذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذى يزن ، يعنى الفرس الذين قدم بهم ابن ذى يزن لنصرته .

وجد الشعوبية إذن عناصر قصة ، فبنوا عليها مايخدم فكرتهم وينصر قضيتهم ، ونسجوا قصة حول غرام أم البنين لرجل جميل من الفرس أو تربى فى حجر الفرس .

ولست أدعى أن هذا الرأى لى فقد ذكر أبو الفرج فى الجزء السادس من كتابه الأغانى أن هذه الحكاية قد وضعها بعض الشعوبية لما تلاحى هو وبعض ولد الوليد زوج أم البنين ، وأن الحق هو الرواية الأولى التى ترى أن الوليد قد قتله لأنه شبب بزوجه أم البنين .

من المعقول إذن أن أقبل أن عربيا قد قتل رجلا لأنه شبب بامرأته وبنسائه فأمثال هذا كثير فى التاريخ العربى وهو يوائم مزاج العربى . ولكن ليس من المعقول أن أقبل هدوء العربى وتريثه ورزانته أمام ما يمس عرضه وشرفه .

(ب) ولم تقف القصة عند حد الاستغلال الشعوبى ، بل استغلها العرب فى النزاع الذى دار بينهم .

فقد كان فى العصر الأموى نزاع بين الأنصار أصحاب الأمر والنهى أيام النبي ومن بعده والذين اتخذوا من المدينة المنورة مركزاً للدعوة . وبين الأمويين أصحاب الأمر الجديد والذين اتخذوا من دمشق عاصمة للحكم

واستخدم كل فريق ماتيسر له من أسلحة المعارك ، وقد كان لقصص الحب نصيب فى هذه الزوبعة الطاحنة .

كان عبد الرحمن بن ثابت الأنصارى وعبد الرحمن بن الحكم الأموى صديقين ، ثم حدثت القطيعة والخصومة بينهما حتى تراميا بالأشعار .

ويختلف كل فريق فى سبب هذه المهاجاة ، ثم يروح يؤلف القصص بما يرضى هواه ويشفى حاجته .

أما الأنصار فيزعمون أن عبد الرحمن بن حسان الأنصارى كان يحب امرأة صاحبه الأموى وكان يختلف إليها ، فبلغ ذلك زوجها فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسان ولكن هذه كانت عفيفة قوية الخلق ، فأنبأت زوجها الأنصارى ، ثم اتفق الزوجان على حيلة يتشفيان بها من هذا الأموى وزوجه . فاحتال الأنصارى حتى حمل امرأة صاحبه على أن تزوره فى بيته وأخفاها فى إحدى الحجر ، واحتالت زوجه حتى حملت الأموى على أن يزورها . فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها الأنصارى فأرادت أن تخفيه فأدخلته إحدى الحجر فإذا هو يرى امرأته .

أما الأمويون فيروون هيكل الحكاية ، ولكنهم يقلبون الأدوار فيها ، فقد كانت زوج الأنصارى عاهراً لاترعى حرمة الزوجية وكانت ترسل الرسل إلى هذا الأموى تغريه بنفسها ، ولكنه كان متين الخلق مراعياً لحرمة صديقه فلم يجبها .

٥ ــ قصص ذات أهداف دينية :

ولم تستغل قصص الحب للمنافع الشخصية أو النزعات الشعوبية أو الأهواء التعصبية فحسب ، بل استخدمت أيضا للأهداف الدينية .

« خرج أبو دهبل الجمحى يريد الغزو وكان رجلا جميلا صالحاً، فلما جاء بجيرون جاءته امرأة فأعطته كتاباً وقالت له : اقرأ هذا فقرأه لها ثم ذهبت فدخلت قصراً ثم خرجت إليه فقالت له : لو بلغت معى إلى هذا القصر ، فقرأت الكتاب على امرأة فيه كان لك أجران إن شاء الله فبلغ معها القصر . فلما دخل إذا فيه جوار كثيرة فأغلقن عليه باب القصر فإذا امرأة جميلة قد أتته ، فدعته إلى نفسها فأبى ، فأمرت به فحبس فى بيت من القصر . وأطعم وأسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت ، ثم دعته إلى نفسها فقال : أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبداً ، ولكن أتزوجك قالت : نعم . فتزوجها . وأمرت به فأحسن إليه حتى رجعت نفسه إليه فأقام معها زمناً طويلا لم تدعه يخرج من القصر حتى يئس منه أهله وولده وزوج أولاده بناته واقتسموا الميراث وأقامت زوجه تبكى ولم تقاسمهم ولا أخذت من ميراثه شيئاً. وجاءها الخطاب فأبت وأقامت على الحزن والبكاء عليه . فقال أبو دهبل لامرأته يوماً : إنك قد أثمت فى وفى ولدى ، فأذنى لى أن أخرج إليهم وأرجع إليك ، فأخذت عليه أيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها وأعطته مالا كثيراً ، فخرج من عندها بذلك المال حتى قدم إلى أهله فرأى زوجته وما صارت إليه من الحزن ونظر إلى ولده ممن اقتسم ماله وجاءوه فقال : مابينى وبينكم عمل ، أنتم ورثتمونى وأنا حى فهو حظكم . والله لايشرك زوجتى أحد فيما قدمت به وقال لزوجه : شأنك بهذا المال كله فهو لك ولست أجهل ما كان من وفائك وأقام معها وقال فى الشامية :

صاح حيا الإله حيا ودوداً | عند أصل القناة من جيرون
فبتلك اغتربت بالشام ، حتى | ظن أهلى مرجمـات الظنون
وهى زهراء ، مثل لؤلؤة الغـو | اص ، ميزت من لؤلؤ مكنون

(إلى آخر الأبيات)

فلما جاء الأجل أراد الخروج إليها ففاجأه موتها فأقام »[١] .

وواضح أن هذه القصة تحمل هدفاً تربويا دينيا وهو الحث على العفة والترغيب فيها . فأبو دهبل - كما فى القصة - رجل صالح وشاب جميل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين . وما زالت به وهو يتأبى حتى ضعف وكاد يموت ، ثم تزوجها على كتاب الله وسنة رسوله .

والعناصر الدينية كثيرة فى هذه القصة ، كعنصر الإثابة على الوفاء ، والمكافأة على الصبر ، فهذه الزوجة المخلصة تفى لزوجها الغائب وترفض الخطاب وتقيم على الحزن والبكاء ، فيكافئها الله على هذا العمل الصالح برجوع زوجها يحمل مالا كثيراً يهبه لها وحدها . وعنصر الوفاء بالوعد ، فهذا الرجل الصالح تأخذ عليه الشامية إيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها . فلما جاء الأجل تذكر هذا الرجل وعده . ولكن القصة تختلق موقفاً ترضى به الزوجة الوفية وفى الوقت نفسه يحافظ فيه الرجل الصالح على وعده ، فقد تدخل سيف القضاء والقدر، فإذا هذه الشامية تموت فيقيم الرجل مع زوجه فى سرور وسعادة .

العنصر الدينى واضح فى هذه القصة ، ولكن هل نستبيح لأنفسنا أن نفهم هدفاً خفيا يستتر وراء هذا ، وهو أن أهل الحجاز - وقد كانت بينهم وبين أهل الشام خصومات - يعقدون فى هذه القصة مقارنة خفية بين امرأة حجازية تحافظ على عهد زوجها وتحزن لفراقه ولا تنشط لماله ولا تتطلع لميراثه بل تنتظر وتنتظر حتى يكافئها الله، وبين شامية خاطفة أزواج تتعرض للرجال وتدعوهم إلى نفسها وتغريهم بالمال والتهديد .

---

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٧٠ .

قد نستبيح لأنفسنا أن نستشف هذا الهدف . ولكنه هدف لا يكاد يتبين أمام الهدف الديني الواضح الذى يملأ كل القصة .

° ° °

وهكذا نجد أن قصص الحب قامت بدور التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية ، وأدت وظيفة التسلية ، واستغلت فى الإعلان والدعاية واستخدمت فى التربية والهداية .



الفصل الثالث

تطور قصص الحب

تتابعت قصص الحب على مختلف العصور العربية واتخذت أشكالا وألوانا مختلفة ، فلو رجعت إلى كتاب « تزيين الأسواق » مثلا لرأيت فيه أخباراً عن ألوان من العشق ، فالباب الأول عقده « فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين » ، والثانى فى « ذكر أحوال عشاق الجوارى والكواعب وذكر ماصدر لهم من العجائب» ، والثالث فى «ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ماجرى عليهم من تصاريف الزمان » . والرابع فى « ذكر ماسوى البشر وما لاقوا من العبر ». وفى هذا الباب أورد أخباراً عن حب بين حمامتين ، وبين غراب وخطافين ، وبين كلب وملك من أقيال اليمن ، وبين نخلتين كانت إحداهما تزهر وتسقط قبل الانعقاد ، فرآها حاذق فعرف أنها عاشقة فدعا برصاص فصنع شريطاً وربط منها إلى النخلة الأخرى فحسن ثمرها وقد قطع صاحب البستان الشريط فأسقط الزهر فأعاده فصلحت .

والمتتبع لتطور قصص الحب يستطيع أن يتحدث عن ذلك من نواح:

١ ــ ناحية يتتبع فيها الباحث حكاية معينة وينظرها فى مختلف المراجع ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع .

فمثلا حكاية الشاب الذى أدخل قصته على الخليفة وفيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة أن تغنى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فى ماشاء من حكمه ، فعل » ــ هذه الحكاية قد ذكرت فى الزهرة وفى

الموشى وفى تزيين الأسواق وفى العقد الفريد وفى مصارع العشاق وفى ذم الهوى وفى المستطرف .

ومن الممكن مراقبة الفروق بين صنيع كل كتاب . ولكننا نجدها فروقاً شكلية فهى اختلاف على اسم الخليفة الذى رفعت إليه القصة ، فهو سليمان فى الزهرة وفى المحاسن والأضداد وفى الموشى . أو هو عبد الملك بن مروان فى ذم الهوى وفى تزيين الاسواق وفى مصارع العشاق . أو هو يزيد بن عبد الملك فى العقد الفريد وفى المستطرف . أو اختلاف فى الشعر الذى طلبه الشاب أو فى موطن الشاب : وهل هو من البصرة كما فى تزيين الأسواق أو هو من المدينة كما فى العقد الفريد . أو فروقاً يسيرة : كأن يذكر الجاحظ مقدمة يبين فيها أنه خرج مع محمد بن إبراهيم على حراقته ، فزجت عوادة نفسها إلى الماء ، ثم تبعها غلام وزج بنفسه فى إثرها وأدار الملاح الحراقة فإذا بهما معتنقان وميتان ، فيستفظع ذلك محمد ويقول للجاحظ : «لتحدثنى بحديث يسلينى عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما» فيقص عليه خبر الشاب مع سليمان بن عبد الملك . أو يفصل صاحب التزيين فى أول هذه القصة فيذكر أن هذا الشاب اسمه ظريف بن نعيم ، وكان بأعظم حالة من الجمال وأمكن رتبة من المال ، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة ، ثم رحل الشاب يوماً إلى بغداد ، وحضر يوماً الدكة ، فرأى الجارية فأعجبته وساوم مولاها حتى أخذها وانطلق إلى منزله ، فلما كان الليل جاءه صاحب شرطة الحجاج فأخذ منه الجارية ووجه بها إلى عبد الملك فتبعها الفتى إلى دمشق ثم كانت قصته السابقة . أو أن يذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن مغنية من المدينة وقعت فى قلب يزيد فسألها إن كان لها أقارب بالمدينة ليكرمهم من أجلها ، فأخبرته ألا أقارب لها ، ولكن هناك ثلاثة نفر كانوا أصدقاء مولاتها وأنها تحب أن ينالهم الخير ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يسيرهم إليه ، فلما وصلوا عنده سألهم حوائجهم

فأما الاثنان فذكرا حوائجهما ، وأما الثالث فبعد أن أخذ الأمان طلب ثلاثة أصوات من الجارية فشرب عليها ثلاثة أرطال . . إلخ .

وقد أتاح لنا ابن الجوزى فى كتابه « ذم الهوى » فرصة جميلة للمقارنة ، إذ ذكر ثلاث روايات لهذه القصة ، رواية فى عهد عبد الملك ، والثانية فى عهد سليمان والثالثة فى عهد الرشيد . والفروق بين هذه الروايات ضئيلة ، فالرواية الأولى تنتهى بأن عبد الملك بعد أن رمى الفتى بنفسه سأل عنه فقالوا : « غريب لايعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادى فى الأسواق ويده على رأسه.

غدا يكثر الواشون منا ومنكم وتزداد دارى عن داركم بعدا

والرواية الثانية تنتهى بأن سليمان قال بعد أن زج الفتى نفسه على دماغه « إنا لله وإنا إليه راجعون ، أتراه توهم الجاهل أنى أخرج إليه جاريتى وأردها إلى ملكى ، ياغلام خذ بيدها فانطلق بها إلى أهله . . . فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة فى دار سليمان قد أعدت للمطر فجذبت يديها من أيديهم وجعلت تقول :

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت

فزجت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت » . والرواية الثالثة تنتهى بأن الرشيد قال بعد ألقى الفتى بنفسه « عجل الفتى ، ولولم يعجل لوهبناها له » .

وارجع أيضاً إلى قصة الشاب الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبدالله القسرى فإننا نجد الفروق يسيرة بين بعض هذه الكتب ، كأن يكون الذى قد كشف الأمر هو أخو العاشق ، أو يكون ابن عم الفتاة . . . إلخ .

وقصة العاشق الذى افترس السبع معشوقته ذكرت فى كثير من الكتب العربية القديمة وكان هناك تقارب بين بعض الكتب ، وتباعد بين البعض الآخر ، فرواية ابن السراج وداود الأنطاكى تتقاربان ، وكذلك راوية

الوشاء وابن الجوزى . وهناك تباعد إلى حد ما بين الروايتين الأوليين وبين الراويتين الأخريين فالأوليان تذكران خبر السبع أولا وتؤخران كشف حقيقة الأعرابى وحقيقة فتاته. أما الأخريان فتبدآان بذكر خبر ذلك الأعرابى مع ابنة عمه وبعد ذلك تذكران خبر السبع ومأساته ، والأبشيهى فى كتابه «المستطرف» مايضيف مأساة أخرى لم تذكر فى تلك الكتب السابقة وينسب الشعر الذى أوصى العاشق ضيفه بأن يكتبه على قبرهما إلى هاتف فيقول بعد أن ذكر دفن العاشقين فى قبر واحد « فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولهانة فقالت لى : هل رأيت شابا يرعى غنماً ؟ فقلت لها : نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة ، فقعدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها ، وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك ، فحركتها فإذا هى ميته فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها ، وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وصرفت الغنم وسقتها ، فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل ... والعيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف ألفتنا ... فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن

وقصة الأعرابى الظريف الذى أراد معاوية أن يستأثر بمعشوقته الحسناء فأبت — لو قارنت بين هذه القصة كما هى فى «مصارع العشاق» ، وبينها كما هى فى « أخبار النساء » لوجدت الفروق بينهما تتلخص فى أن القصة كما هى فى الأخبار أكثر تشويقاً إلى حد ما منها كما هى فى المصارع إذ قدم لها بوصف للأعرابى وصفاً مشوقاً جعل معاوية يقول لجلسائه « لم يخلق الله من احتاج إلى نفسه فى مثل هذا اليوم . . ياغلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته . . . إلخ » .

٢ – وناحية يتتبع فيها الباحث القصص المتشابهة ويراقب الفروق بينها .

فقصة عروة وعفراء، لها قصة مشابهة حدثت فى العصر الجاهلى وهى قصة المرقش وأسماء ، فبينهما تشابه فى كثير من التفصيلات والأحداث وإن كان فى قصة المرقش يرد موقف ليس له ما يشابهه فى قصة عروة ، وذلك أن المرقش حين علم حقيقة الأمر من غلامين يلعبان وأن القبر الذى كان يحج إليه لم يكن يضم إلا عظام كبش – حين علم ذلك دعا وليدة له وزوجها الذى كان عسيفاً له، وركبوا جميعاً فى طلب المرادى، ووفى الطريق مرض المرقش حتى كان لا يحمل إلا معروضاً ، حتى نزلوا كهفاً بأسفل نجران ، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها « اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً » فجعلت الوليدة تبكى من ذلك . فصمم على رأيه حتى أذعنت له – فلما سمع المرقش ذلك كتب على مؤخرة الرحل أبياتاً من الشعر إلى أخويه أنس بن سعد وحرملة يخبرهما فيها بحقيقة الأمر . وحين رجعت الوليدة وزوجها أخبرا القوم أن المرقش قد مات . ولكن حرملة قرأ الأبيات فدعاهما وخوفهما وأمرهما أن يصدقاه فلما علم منهما الحقيقة قتلهما وركب فى طلب أخيه ، فلما وصل إلى الكهف عرف أن أخاه قد احتمل إلى منزل محبوبته .

وقصة قيس ولبنى لها قصة تشبهها وتنسب أيضاً إلى العصر الجاهلى ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند ، وإن كانت قصة قيس قد ورد فى خلالها موقف ليس له ما يشبهه فى قصة ابن العجلان ، وهو زواج قيس بعد أن طلق معشوقته خضوعاً لرغبة والديه ، بأخرى تسمى « لبنى » على اسم محبوبته . وهناك قصة حدثت فى عهد ابن عباس تشبه هذه القصة فى كثير من التفصيلات وهى قصة عروة بن قيس التى ذكرت فى تزيين الأسواق. وفى ظنى أن الحادثة واحدة وهى أن رجلا أحب امرأة فتزوجها ثم تدخل أهله بالتفريق بينهما فنجحوا فى ذلك ، وإن كانوا لم

ينجحوا في إطفاء لوعة الحب – الحادثة واحدة كان القوم يتسامرون بها في المجلس ويختارون لها من الأسماء التي يخترعونها أو يختارونها من التاريخ فالعاشق قد يكون اسمه عبد الله ، أو قد يكون اسمه قيساً ، أو قد يكون اسمه عروة ، وقد تكون هناك بذور تاريخية لهذه الحادثة ، ولكن القوم نقلوها إلى مجال التفكه والمسامرة ، فجعلوا يزيدون عليها بعض التفصيلات وبعض الأشياء المشوقة .

ومن الطريف أن نقارن بين القصة التي قصها طريح بن إسماعيل الثقفي في عصر الوليد بن يزيد وبين القصة التي قصها محمد بن صالح بن عبد الله بن الحسن في عصر المتوكل وبينهما أكثر من مائة سنة وقد ذكرت القصتان في كتاب « المحاسن والأضداد ». فإن القصة الثانية تزيد على الأولى في أن صاحب الأشتر بعد أن لبس ثياب جيداء ودخل الزوج وجعل يضربه ظنا منه أنها جيداء – بعد ذلك تذكر القصة الثانية أن أمها دخلت وجعلت تعاتب الرجل ظنا منها أنه ابنتها ثم قالت له : سأرسل إليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك ، فجاءت أختها ونامت بجانبه فلما استمكن منها شد على فمها وأخبرها بالحقيقة وأنها أولى من ستر عليها ثم بات معها يتحدثان ويضحكان حتى برق النور . القصة الأولى تكتفي بتلك الآلام التي لقيها طريح ، والقصة الثانية تكافئ صاحب الأشتر بتلك النهاية السعيدة . وقد ذكرت هذه القصة في مصارع العشاق في سلسلة من الرواة منها « حدثنا محمد بن صالح الحسني حدثني أبي عن نمير بن قحيف الهلالي قال . . . ». والروايتان في المصارع وفي المحاسن تتشابهان إلى حد كبير حتى في استعمال بعض التشبيهات ، وليس بينهما فروق إلا في ألفاظ قليلة. وقد ذكرت هذه القصة في تزيين الأسواق ، إلا أنها ختمت بنهاية حزينة لم تذكر في مصارع العشاق «. . . قال ابن طاهر : فلم يقم بعدها بشير إلا دون شهر وجاءه شخص . . . فقال له

وهو يتناول عنباً : أتتفكه وجيداء قد قضت الساعة؟ فلم يسمع منه إلا شهقة ، وحرك فإذا هو ميت . فبلغ الخبر الجارية فهتكت سترها وجزت شعرها وألقت نفسها فى بئر هناك فماتت » . وبغض النظر عن هذه النهاية فإننا نجد الفرق بين ابن السراج والأنطاكى ينحصر فى أن الأول يتوسع فى الأسلوب وذكر التشبيهات فى حين أن الثانى يميل إلى الاختصار . فمثلا يصف الأول بشراً فيقول : « وكان سيداً حسن الوجه شديد القلب سخى النفس » والثانى لايصف بشراً بشىء وبينما يقول الأول: « ... وضرب بيده إلى مقدم البيت فاستخرج منه سوطاً مفتولا كمتن الثعبان المطوق » أو: « فاهتزت الجارية كما تهتز القصبة من الروع » أو: « . . . وكشفت عن ظهرى فإذا فيه ماغرس الله من ضربة إلى جانب أخرى كل ضربة تخرج الدم وحدها » . بينما يقول الأول هذا مستعملا التشبيهات والصور إذا بالثانى يقول : « ثم عمد إلى سوط مفتول » أو : « . . . فارتعدت ساعة » أو : « فلما رأى تأثير السوط وخروج الدم قال . . . » .

وفى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها تدور حول رجل أحب امرأة وأحبته وقامت بينهما عقبات والتمسا من صديق له أن يلبس ثياب المرأة وأن ينام مكانها حتى يخدع زوجها بذلك ففعل ، ثم إن الزوج دخل على الرجل ظنا منه أنه امرأته ثم حدث ما أغضب الزوج فتناول السوط وجعل يضرب الرجل وهو يحسبه امرأته — فى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها مادة طيبة للسمر ظل الناس يتفكهون بها فى مجلسهم أيام الوليد وأيام المتوكل وغيرهما ، وأخذ الرواة يروونها بتغييرات طفيفة وزيادات هينة .

ولعلنا نلاحظ من هذه الأمثلة أن التطور فى القصة الواحدة وبين القصص المتشابهة ضئيل ، لا يعدو الاختلاف فى الأسماء أو زيادات فى بعض الروايات ، بل إن التقارب وصل فى بعض الروايات إلى حد استعارة التشبيهات والألفاظ .

وربما كان السبب في هذا أن الرواة لم يكونوا ينظرون إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة ، ولم يكن في وعيهم إنشاء قصة تتخذ من التاريخ مادة ولها بعد ذلك الحرية في التأثير والوصف والإضافة ؛ فكانت هذه القصص مختلطة عندهم بمفاهيم التاريخ وكانوا ينقلونها عن الأعراب وغيرهم وكأنهم ينقلون روايات تاريخية ينبغي أن يحرصوا فيها على الألفاظ والترتيب ، بل على ذكر الأسانيد .

ومن الطريف أن سيرة « الأميرة ذات الهمة » التي لا يشك أحد في بعدها عن التاريخ ، إذ أن رواتها قد أباحوا لأنفسهم الحرية في التصرف والمبالغة وخلق الأحداث واختراع الشخصيات والجمع بين شخصيات متباعدة زمناً ومخالفة التاريخ في الوقائع المعروفة — من الطريف أن جامع هذه السيرة — على الرغم مما ذكرت — كانت مفاهيم التاريخ مختلطة عنده بمفاهيم الحكايات الشعبية فوصف هذه السيرة على غلافها بأنها « أكبر تاريخ للعرب وخلفاء بني أمية والخلفاء العباسيين . . جمعت هذه السيرة أخبار العرب وحروبهم وملك مصر والشام وبغداد وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد الإفرنج وفيها من الفتوحات ما يبهر العقول » .

لم ينظر الرواة إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة . وكذلك النقاد لم ينظروا إليها نظرة جدية تقوم منها وتنير لها السبيل ، فتركوها للعامة يحكونها في مجلسهم ويتصرفون فيها تصرفاً فطريا .

* * *

٣ — وناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص مع تطور ظروف العصر وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية .

(ا) فحكايات الحب الحسية التي رويت حول ابن أبي ربيعة وغيره من شخصيات العصر الأموي ، كانت حكايات من النوع الظريف التي

لم تبتعد كثيراً عن الخلق العربى .

ولكن بعد هذا العصر وبعد أن أتى الاتصال بالأمم المجاورة ثمرته وبعد أن عرف العرب فلسفة مانى وإباحية مزدك — بعد هذا كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ . فمثلا بشار بن برد يروى عنه أبوالفرج فى الأغانى قصة ماجنة مع امرأةهويها تسمى «أمامة» فكادت له بالاتفاق مع زوجها . وقد أنشد فى هذهالقصة أبياتاً مكشوفة .

وشاعت قصص عشق الغلمان ، وقد عقد داود الأنطاكى باباً لهذه القصص سماه «فى ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ماجرى عليهم من تصاريف الزمان» . وأورد كثيراً من هذه الحكايات ، التى كان يبلغ العاشق فى بعضها درجة الجنون والتوله ، كأخبار مدرك مع صاحبه عمرو إذ توله فى حبه حتى اختلط عقله .

(ب) وقصص العشق العذرية كانت تدور فى العصور العربية الأولى (فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى) حول عشق فتى لفتاة عشقاً لايشرك معها فيه غيرها .

ولكن بعد ذلك نجد قصصاً صوفية يتجاوز فيها العاشق حب البشر إلى حب الذات العليا حبا يملك عليه كل جوارحه ويصيبه بالتوله والجنون ويجعله ينشد الأشعار الغرامية فى محبوبه الذى لايشرك فى حبه غيره .

وإننى أنفى أن يكون للحب الأفلاطونى أثر على الحب العذرى فى العصر الأموى وما قبله . ولكن يمكننا أن نتحدث — بعد ذلك العصر — عن تأثيرات أفلاطونية وأفلوطونية ، فقد عرف العرب الكثير من آراء أفلاطون وأفلوطين ، وأتيح لها الوقت الكافى لأن تفعل فعلها. وعلى هذا لا أبعد لو قلت إن الفكرة الجديدة التى قال بها بعض الصوفية من أن العشق العذرى وسيلة إلى العشق الإلهى أو كما يقول بعض العارفين :

«كما أن النساء حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان ، إذ قد يتوصل العاشق من عشقهن إلى معرفة مبدعهن ، لأن المقدمات الصريحة تنتج الأغراض الصحيحة . وبالحرى من أمعن النظر فى مخلوق زائل ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل» .— لا أبعد لو قلت إن هذه الفكرة متأثرة بما طرأ على المجتمع الإسلامى من آراء فلسفية [١] .

والربط بين العشق العذرى وبين أمور دينية كان موجوداً فى بعض الأذهان منذ العصر الأموى . فقد عشق رجل من ولد سعيد بن العاص جارية مغنية فابتاعها له عمر بن عبد العزيز وأهداها إليه ، فمكثت عنده سنة ثم ماتت ، فبقى مولاها شهراً أو أقل ثم مات كمداً عليها فقال أبو السائب المخزومى: حمزة سيد الشهداء وهذا سيد العشاق فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة كما كبر النبى صلى الله عليه وسلم على قبر حمزة سبعين تكبيرة . وبلغ أبا حازم الخبر فقال : أما من محب فى الله يبلغ هذا ولى [٢] . وقيس كانت تشغله ليلى عن تبين القبلة وكان يضفى عليها شيئاً من التقديس والتبجيل فيقول :

أرانى إذا صليت يممت نحوها بوجهى ، وإن كان المصلى ورائيا

وقد اهتم الصوفية بالعشاق العذريين ، فكان الشبلى يضرب لسامعيه

---

(١) انظر لهذا الموضوع : ١ – مائدة أفلاطون ص ٢٦٠ .
٢ – الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى ص ١٣١ من الطبعة الثانية .
٣ – الحياة العاطفية للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٣١٤ .

(٢) انظر : مصارع العشاق ص ٥٦ .

المثل بالمجنون فيقول : « ياقوم هذا مجنون بنى عامر كان إذا سئل عن ليلى يقول أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى ، فكيف يدعى من يدعى محبته وهو صحيح مميز » . وكان ابن الفارض سلطان العاشقين يشبه حالته بحالة العذريين فيقول فى ديوانه :

كمجنون ليلى أو كثير عزة ... بها قيس لبنى هام بل كل عاشق
بصورة حسن لاح فى حسن صورة ... فكل صبا منهم إلى وصف لبسها

وقد عقد صاحب التزيين باباً « فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين » . وقص فيه حكايات صوفية عن ابن المبارك ، وعن أبى الفيض ذى النون المصرى ، وعن أبى الفتح بن سحنون ، وعن عتبة المعروف بالغلام . . إلخ .

(حـ) وكثير من العرب فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى كانوا يقدرون العاشق ويتعاطفون معه ويعتبرونه شخصية أرقى من غيرها . وانظر إلى أخى الفزارية كيف كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال : « دعونى ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام» . واقرأ فى الأغانى كيف كان القوم يتحمسون لأخبار المجنون ويتتبعونها ويتحملون من أجل ذلك المشاق والمتاعب . وكان القوم يعظمون تضحية العاشق فالرجل الذى انتحر لأن السبع أصاب معشوقته كبر فى أعين القوم وقالوا « والله لننحرن عليه تعظيماً له فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلثمائة ناقة » . حتى الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة ، فيذكر جميل أن الزوج لما بلغه خبر انتحار العاشق « تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما » .

ولكنى أقرأ فى نصوص متأخرة مايثبت أن هذه النظرة قد تغيرت عند كثير من الناس فأصبحوا ينظرون إلى العشاق نظرة سخرية ويعتبرونهم أشخاصاً مرضى قد أصابهم الخلل فى عقولهم والاضطراب فى أفكارهم .

فكانوا يصفدونهم بالحديد ويضعونهم فى دار تسمى « دار المجانين » .
وتحت عنوان « فصل فيمن أناخ به الحب ثقله حتى أذهب عقله » ذكر داود الأنطاكى قصصاً لعشاق أدخلهم قومهم بيمارستان بغداد أو دير هرقل .

ويحكى المبرد قصته وقد خرج مع المأمون ثم دخل ديراً فيه مجانين مغلغلين وهم فى نهاية القذارة وبينهم شاب عليه بقية ثياب ناعمة فحياهم وجعل ينشدهم شعراً فى العشق ثم ختم شعره بهذا البيت :

إنى على العهد لم أنقض مودتهم   فليت شعرى لطول العهد مافعلوا

فأراد رجل كان مرافقاً للمبرد أن يسخر منه وأن يتمازح معه فقال له : ماتوا . قال الشاب : إذن فأموت . فتمطى واستند إلى السارية التى كان مشدوداً فيها . وجعل يضرب رأسه بها حتى مات .

وأشم فى بعض النصوص روح السخرية والاستهزاء بالمحبين ، وبهذا الحب الغافل الذى هو أشبه بعشق البهائم « قال المتوكل لأبى العنبس الصيمرى : اخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها . قال : نعم يا أمير المؤمنين كان أعقل من القضاة ولم يكن له جريمة ولا زلة فاعتل علة فمات منها ، فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : ياحمارى ألم أبرد لك الماء وأنق لك الشعير وأحسن إليك جهدى فلم مت غفلة . . . ؟! قال : لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا مرت بى أتان حسناء فرأيتها فأخذت بمحاسنها قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها فمت أسفاً . فقلت له : ياحمارى هل قلت فى ذلك شعراً ؟ قال نعم . فأنشدنى :

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنفرانى
فبها مت ولو عشت إذن طال هوانى

فقلت : ياحمارى فما الشنغرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير . فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك فى شعر الحمار وفرح فى ذلك اليوم فرحاً لم ير مثله » .

فقد أصبح العشق فى هذا النص من طباع الحمير ، وأصبحت فعالها مادة تثير الضحك وتبعث السرور ويجد فيها الملهون والمغنون مجالا للهو والغناء . ولأمر ما كان يكرر أبو العنبس قوله : ياحمارى ! .

وعلى أى حال فقصص الحب حين عبرت عن المجون والشذوذ ، أو شفت عن الوجد الصوفى — لم تتطور من الناحية الأدبية عن قصص الظرفاء والعذريين. وكل الفرق الذى حدث أنه بدل الظرف حل المجون وبدل العشق العذرى حل العشق الصوفى وبدل عشق الكرام ظهر عشق الحمير .

أما الناحية الأدبية فما زالت القصة فقيرة فيها بذور فنية جاءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبراً قصيراً سريعاً متناثراً فى بطون الكتب تختلط فيه الحقيقة بالوهم والتاريخ بالخيال ، اختلاطاً لايبين عن شخصية التاريخ المحققة ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

* * *

٤ — إنما أتيح لهذه القصص أن تنمو وأن تتوسع فى الأحداث وفى إثارة التشويق وفى جذب السامع وفى إضفاء الجو القصصى — حين استطاعت أن تتخلص من تلك النظرة التاريخية وأن تنتقل إلى مجال الأدب انتقالا واضحاً واعياً ، وذلك حين .

(ا) انتقلت هذه القصص إلى السير الشعبية ، إذ يبدو أنه قد أصبح واضحاً لدى رواة هذه السير أنهم يذكرون حكايات يراد منها التأثير والجذب ولا يراد منها التاريخ وحقائقه على الرغم من أن بعضهم قد حاول أن يصدر سيرته بما توهم أنها تاريخ للعرب ووقائعهم .

فمثلا قصة السارق الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبد الله القسرى لينقذ معشوقته من الفضيحة قد كانت الفروق فيها بين الكتب العربية التى تختلط فيها القصة بالتاريخ – فروقاً لا تعدو الاختلاف على أشياء شكلية وكأن الراوى يخشى أن يتوسع وأن يفصل لأنه يخشى أن يخالف التاريخ وأن يثير الخاصة ، ولكن حين انتقلت هذه القصة إلى « ألف ليلة وليلة » أضفى عليها جو قصصى وتوسع الراوى فى شرح أحداثها والتركيز على النقط المؤثرة ومحاولة جذب القارئ ، فتبدأ القصة بوصف العاشق بأوصاف تجعل السامع يتعاطف معه فهو « ذو جمال باهر وأدب ظاهر وعقل وافر . وهو حسن الصورة وعليه سكينة ووقار » وبالفعل تعاطف خالد مع هذا الشاب حين قدم إليه على أنه لص ودار بينهما حوار حاول فيه أن يسبر أمر هذا الفتى ، ثم دنا منه وسأله عن قصته فقال : إن القوم صادقون فيما قالوه والأمر على ما ذكروا . فقال له خالد : ماحملك على هذا وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى . فقال له خالد : ثكلتك أمك ، أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر يزجرك عن السرقة ؟! . قال : دع عنك هذا أيها الأمير وامض إلى ما أمر الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه وقال له : إن اعترافك على رءوس الأشهاد قد رابنى وأنا ما أظنك سارقاً ولعل لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها . قال أيها الأمير لا يقع فى نفسك شىء سوى ما اعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكننى » . فأمر خالد بحبسه ووكل به قوماً يراقبونه ويتسمعون أخباره وإذا به يفضح نفسه ، إذ أنه حين استقر فى الحبس « تنفس الصعداء وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :

هددنى خالد بقطع يدى إذ لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبوح بما تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به أهون للقلب من فضيحتها

وينقل الموكاون به ذلك إلى خالد فيأمر بإحضار ذلك الفتى الغريب الأطوار ويأكل معه ويتحادث محاولا أن يصل إلى حل اللغز ولكنه لايستطيع . فلا يجد مناصاً من أن يعرض على الفتى بأن ينكر السرقة أمام القاضي وأن يذكر من الشبهات ما يدرأ عنه حد القطع . وفى اليوم المحدد لعقوبة الفتى حضرت الناس . وهنا تصف القصة موقفاً مؤثراً « إذ لم يبق أحد فى البصرة من رجل ولا امرأة ، إلا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى . وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم استدعى بالقضاة وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل فى قيوده ولم يره أحد من الناس إلا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالنحيب فأمر القاضى بتسكيت النساء ! ويتعاطف القاضى أيضاً مع هذا الفتى الجميل فيسأله أسئلة يحاول فيها أن يبرئ الفتى » . . قال له : إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم . لعلك سرقت دون النصاب ؟ قال : بل سرقت نصاباً كاملا . قال : لعلك شريك القوم فى شيء منه ؟ قال : بل هو جميعه لهم لا حق لى فيه . وهنا يثور خالد على هذا الفتى العجيب فيقوم إليه ويضربه على وجهه بالسوط . متمثلا بهذا البيت .

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما يريد

ثم دعا بالجزار ليقطع يده . وهنا تحدث مفاجأة أذهلت القوم إذ بادرت جارية من وسط النساء عليها أطمار وسخة فصرخت ورمت بنفسها عليه ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر وارتفع للناس ضجة عظيمة وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر ، ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير ! لاتعجل بالقطع حتى تعرف حقيقة

الأمر » . وتكشف لخالد الغموض الذى أحاط بموقف الفتى وتنتهى القصة بزواجهما على يد خالد « قال الراوى : فما رأيت يوماً أعجب من ذلك اليوم أوله بكاء وشرور وآخره فرح وسرور » .

هذه القصة — كما هى فى ألف ليلة وليلة — تتوسع فى نثر الأمور القصصية الجذابة ، فهى تجعل القارئ يتعاطف مع العاشق الجميل الغريب الأطوار ، وهى تحاول أن تثير الشوق. وانظر إلى صنيعها حين تقف بالقارئ عند نقطة مؤثرة لتفاجئه بأن الصباح قد فاجأ القاص ، فمثلا حين يستدعى خالد الفتى من السجن ويعرض عليه أن ينكر السرقة حتى ينقذ نفسه من القطع . وهنا يتشوق القارئ إلى معرفة موقف هذا الشاب الغامض ، ولكن الصباح يأتى فلا يكشف القاص عن موقف الفتى وإنما يفعل ذلك فى الليلة الثامنة والتسعين بعد المائتين .

وأظن أن جامع التحفة البهية قد نقل هذه القصة من « ألف ليلة وليلة » إذ أن قصته تشبه القصة كما وردت فى ألف ليلة وليلة : فى بدايتها وفى تعليق الراوى على نهاية القصة وفى الشعر الذى ورد على لسان الفتى وهو فى حبسه ، بل حتى فى استعمال الأسلوب المسجوع والكلمات وأية مقارنة تثبت هذا . موقف واحد فقط يتوسع فيه جامع التحفة ويذكر فيه أبياتاً لم تذكر فى ألف ليلة وليلة . وهو موقف الفتاة حين كشفت عن الغموض « فلما حضر الجلاد وأخرج السكين ، بدرت جارية من صف النساء وعليها إزار وسخ وصرخت صرخة عظيمة ورمت نفسها عليه ، وأسفرت عن وجه كأنه القمر إذا أبدر ، والصبح إذا أسفر ، بطرف كحيل وخد أسيل وثغر أفلج وحاجب أبلج وقد كالقضيب وردف كالكثيب . . . ثم نادت بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير ، لاتعجل عليه حتى تقرأ هذه القصة ثم دفعت إليه رقعة ففضها خالد فإذا فيها مكتوب

أخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظى عن قسى الحمالق

فأضناه سهم اللحظ منى فقلبه حليف هوى من دائه ند فائق
أقر بما لم يقترفه ، لأنه رأى ذاك خيراً من فضيحة عاشق
فهلا عن الصب الكئيب لأنه كريم السجايا فى الهوى غير سارق
فأنت الذى لا يرتجى اليوم غيره لدفع ملمات الخطوب الطوارق

ومثال آخر . . . فإننا نقرأ قصة مجنون ليلى فى كثير من الكتب العربية القديمة ، فإذا بها قصة مهلهلة مكتظة بالأسانيد والحشو ليس فيها ترتيب . وإنما هى مجموعة من الأخبار ضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق. وقد وصف الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من حديث الأربعاء ، هذه القصة بأنها سخيفة متكلفة .

ولكن وقع فى يدى كتاب مكون من خمس وخمسين صفحة يحمل عنوان « قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى » ولم يعلم جامع هذا الكتاب . ولكنى أظن أنه ألف فى فترة متأخرة حين شاع تأليف السير الشعبية فإن أسلوبه يشبه أسلوب تلك السير فى استعمال السجع وفى المبالغة ، وفى ترديد كلمة « قال الراوى » . وفى الإتيان بأشعار سخيفة قريبة إلى الأشعار العامية السهلة مثل :

يامنيتى أنت مقصودى ومطلوبى وأنت رغما من الأعداء محبوبى
إن تحتجب عن عيون الصب ياأملى ماأنت من قلب المضنى بمحجوب

قصة قيس — كما جمعها مجهول — تعتبر أكثر نموا وأقرب إلى الناحية القصصية فهى قد مالت إلى الإفاضة والإطالة وشرح المواقف المؤثرة ومحاولة غرس العطف فى قلب القارئ على قيس المسكين ، وبدت ذات ترتيب من بداية ونهاية ، وتخلصت من النظرة التاريخية ومن العنعنات والأسانيد ، بل كانت تذكر من الأسماء ما لم ترد فى كتب التاريخ والتى كانت موافقة لأسلوب السجع . أو تحرف من الأسماء التاريخية ما يناسب هذا الأسلوب مثل « وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام يقال لها ليلى بنت مهدى

ابن عصام » ويذكر الأغانى نسب ليلى هذه فى الجزء الأول فيقول : « بنت مهدى بن سعد بن مهدى بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعة » . ومثل « وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له سعد بن النيف» والأغانى لايذكر اسم هذا الزوج وإنما يكتفى بأنه رجل من بنى ثقيف موسر . ومثل « وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان . . فأنشد وقال :

وأجهشت للثوبان حين رأيته ونادى بأعلى صوته ودعانى
فقلت له : أين الذين عهدتهم حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال : مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

والأغانى يذكر أن هذا الجبل اسمه توباد ويورد شعراً مثل هذا الشعر وإن كان يختلف عنه فى بعض الألفاظ . والقصة الشعبية نفسها تذكر هذا الاسم « توباد » فى موضع آخر حين تجد أنه يسعفها فى أسلوب السجع « فصار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد » .

وقصة قيس هذه جمعت أخبار المجنون وصاحبته المتناثرة فى الكتب العربية ، جمعاً لا كصنيع الجامع لأخبار عروة بن حزام الذى يكاد لا يختلف عن الأغانى فى شىء فى تلك الصفحات الإحدى عشرة التى جمع فيها أخبار عروة . إذ أن الجامع لقصة قيس قد ظهرت شخصيته فى ترتيب هذه الأخبار وفى إضفاء الأسلوب القصصى عليها وفى ملء الفجوات بين هذه الأخبار وفى التوسع فى المواقف المؤثرة ، وفى شرح مشاعر ليلى التى تحدثت عنها الأخبار العربية حديثا مقتضباً ، وفى التحدث عن مشاعر الزوج التى تجاهلتها الأخبار العربية وفى نثر الخطابات المؤثرة المتبادلة بين قيس وليلى وفى الاهتمام بالوصف ، ولا تنسى أن تصف الطبيعة وترسم الجو كأن تقول : « إلى أن انتصف ظلام الليل وعلا نجم سهيل » . وهى فى وصف الطبيعة لاتبالغ فتخرج عن وصف طبيعة صحراء نجد المقفرة

إلا فى حالات نادرة مثل حديث رجل من بنى أسد التقى بالمجنون فيقول : « إلى أن توصلت إلى روضة كثيرة الأزهار والرياحين والأنوار ، فحدثتنى نفسى أن أقيم فيها ، وأتنزه فى بعض نواحيها . فنزلت فى أرجاء تلك الأزهار المونقة ، والأنوار البديعة المورقة وأنخت ناقتى إلى قنوان شجرة صغيرة ، وجلست برهة يسيرة . فبينما أنا أتأمل فى تلك الروضة المرج الطويلة العريضة ، إذ سقط رجل من الجراد كثيرة الأعداد ، على ذلك الواد ، فافترشت جنباتها وأرضها ، وأخذت طولها وعرضها فتعجبت من تلك المناظر البهية والروائح الزكية . . . إلخ ». فإن هذا الوصف أقرب إلى الطائف أو غوطة دمشق منه إلى صحراء نجد .

تبدأ هذه القصة فتذكر أنه كان فى زمن عبد الملك بن مروان رجل يقال له الملوح بن حزام ، كان له ثلاثة أولاد ذكور كأنهم البدور. منهم قيس « وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وقدراً ، وأجودهم نظماً ونثراً . . . » . وصاحبته ليلى « سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامة » . ولما شاع حبهما استعظم أبوها ذلك الأمر ، وطارت من عينه شرار الجمر ، ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار وحجبها عنه خوف الفضيحة والعار. وزاد الجوى بقلب قيس فجعل أهله ينصحونه ويعذلونه ولما لم يجدوا نفعاً تقدموا إلى أبيها خاطبين ليلى فأبى ، فزاد الأمر بقيس وتوله وانطلق إلى الفلوات » . وهنا تصف القصة موقفه من صائد الظباء وصفاً مفصلا تبغى به التأثير على السامع . ويحج به أبوه إلى الكعبة ملتمساً العون من الله ولكن دون جدوى « إذ ترك أباه والحرم وقصد البرارى والأكم » وجعل أبوه يطمئنه ويقول له « فعد معى إلى بنى عامر ، وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر ، وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة » وما زال يحايله حتى رجع معه إلى الأوطان. أما ما كان من أمر ليلى فقد تحولت إلى شىء يتمناه الجميع ويجدون فى

طلبه والفوز به ، «وكأنها المجد الذى يسعى الطامحون إلى التعلق به ، أو مقام التجريد الذى يجد الصوفيون فى طلبه . ولنترك الراوى يشرح تأثير ليلى على قلوب الخلق « وأما ما كان من ليلى ، فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق ، وتحدثت فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ما قال قيس فيها من الأشعار الرقاق التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق . فكان كل واحد يود أن ينظرها ويتمنى أن يراها ويبصرها ، فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب » حتى وافق أبوها على أن يزوجها رجلا من بنى ثقيف . وهنا تصف القصة موقف ليلى إزاء هذا الزوج وصفاً واضحاً مفصلاً فتقول : « فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر ، واكتوى قلبها بلهيب الجمر . لأن هذا الخبر كان لا يوافق غرضها ، ولا يشفى علتها ومرضها ، لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه ، ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة ، والصداقة القويمة ، فأبت ولم تقبل ، وفضلت حلول الأجل ، وقالت : هذا أمر لا يتم أبداً ، ولو مت قهراً وكمداً ، فلما سمع كلامها وعلم ما فى ضميرها ومرامها ، تهددها الكلام فشتمها ، ودار به الغيظ فلطمها . فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلان ، فلما رأت ما حل بها من الهوان ، وأن موج البلايا أحاط بها من كل مكان ، أجابت سؤاله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفاً ، ورؤيتها له تعسفاً . فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار . . . » تتحدث هذه القصة عن مشاعر ليلى ولا تمر بها مروراً عابراً كما تفعل الكتب العربية . وتذكر بعد ذلك صدمة قيس من هذا الزواج وأنه خرج يطوف فى الفلوات وقلل الجبال ، واعتراه الشحوب والهزال . وتذكر أن رجلاً من بنى بارق يقال

له نوفل بن مساحق التقى به وهو على هذا الحال . وتتحدث عن هذا الموقف حديثاً مؤثراً ، ولكنها تخالف الكتب العربية فتجعل اللقاء الأول بين قيس ونوفل قبل زواجها وأنه حاول أن يتشفع له عند أبيها فلم ينجح . ولكن هذه القصة حين جعلت اللقاء الأول بينهما قد تم بعد زواجها كانت منطقية فى أنها لم تجعل نوفلا يتشفع لقيس فى امرأة متزوجة واكتفت بأن نوفلا حين رثى لحاله قال له : « أيها الحبيب والشاعر اللبيب إنه يعز على ويعظم لدى أنى أراك فى هذا الحال ، تقاسى العذاب والنكال ، فهل لك أن تسير معى إلى الديار وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من هى أحلى وأحسن من ابنة عمك ليلى » . فتركه قيس وانصرف. وتتحدث القصة عن الرسائل التى كان يتبادلها قيس وليلى . وهنا تطلعنا على نماذج رقيقة من الخطابات الغرامية المؤثرة التى يختلط فيها الشعر بالنثر . وكنت أود أن يتسع المقام لنقل نموذج لهذه الخطابات الغرامية ولكنى سأكتفى بمطلع خطاب فقط « من قيس بن الملوح الهائم الوامق والحبيب الصادق ، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح در الصدف وياقوت الشرف . من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية ، إنى بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واكتشاف آثارك . . . إذ ورد لى عزيز رسالتك الموسومة بسماء المحبة الفائقة المسفرة عن ازدياد الصحبة الصادقة» وتظل القصة تتحدث عن عذاب ليلى وهيام قيس ، وتسند إلى ليلى بعض مواقف أسندتها الكتب العربية إلى لبنى . كموقفها من الغربان الخمسة التى اشترتها وجعلت تضربها وتقطعها وهى تنشد الشعر ، ولما لامها زوجها على هذا الأمر انفجرت فيه . وتتحدث القصة عن مشاعر الزوج واستيائه من موقف ليلى وشكواه إلى أبيها يحاول أن يطمئنه ، وتتحدث عن موقف لقيس يقربه من أهل الكشف الذين يتنبئون بالغيب وذلك أن الزوج حين حذر قيساً من عبد الملك قال له قيس: « والله إنه منذ ثلاثة أيام ، بينما كنت

أطوف في بعض الآكام ، زارني طائران وقالا لي : وحق الملك الديان ، لقد قضى الرحمن بالقضاء أيام عبد الملك بن مروان . ثم أطرق مليا وأقام مدة لايتكلم شيئا ، ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر . وقد أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات » .
وبالفعل تتحقق نبوءة قيس إذ يموت عبد الملك بعد ثلاثة أيام . ثم تنتهي هذه القصة فتجعل ليلى تموت قبل قيس وهي موفقة في هذا من الناحية الأدبية ، إذ أن موت ليلى قبله قد زاد من فظاعة المأساة وأتاح للقصة خاتمة مؤثرة ، إذ أن قيساً « أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب واتخذته الرعدة والاضطراب ، وكان يأوي إلى قبر ليلى ويدور بالنهار وهو يرثيها بالأشعار » حتى انتهى به الأمر « إلى واد كثير الحجارة وإذا به ميت معلق بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين .. » . « واحتمله القوم وغسلوه وكفنوه وإلى جانب ليلى دفنوه ، وكان ذلك في سنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية » .

وأنتقل إلى قصة شعبية أخرى وهي سيرة الأميرة ذات الهمة فأختار منها بعض قصص العشق التي جعلت مسرحها في العصر الأموي ، فأرى كيف يكون النماء في هذه القصص والثراء والتشابك والانتقال من حكاية إلى حكاية والمفاجآت وحسن الوصف ومحاولة التأثير على القارئ وجذبه .. إلخ.
فحين تقرأ في الكتب العربية القديمة تجد أنها تذكر أخبار العشاق متناثرة متقطعة ، كل موقف — في الأعم الأغلب — ينفصل عن الموقف الآخر ليس هناك رباط واحد يربطها ، وإنما هي أخبار متقطعة تختلط فيها الحقيقة بالخيال فمثلا خبر يتحدث عن تبشير كاهن لهند بأنها سوف تلد مولوداً عظيم الشأن وخبر يتحدث عن امرأة في ثياب رجل ، وخبر يتحدث عن محاولة اغتصاب خلفاء أمويين لحرم غيرهم كما فعل يزيد مع امرأة عامر أو مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر . وخبر يتحدث عن

إطلاق قيس للظباء . وخبر أو أخبار تتحدث عن ابن أبى ربيعة وفاطمة بنت عبد الملك حين حجت . وخبر يتحدث عن غرام قيس بلبنى الكعبية من النظرة الأولى حين التقى بها فى يوم حار فاستسقاها فسقته ومهدت له الوطاء وجاء أبوها فأكرمه . وخبر يتحدث عن عروة وموقف عمه منه ، وخبر يتحدث عن دور الوشاة . . . إلخ .

ولكن سيرة الأميرة ذات الهمة لاتذكر هذه الأخبار متناثرة ، بل تضمها فى سيرة شعبية طويلة وتملأ الفجوات بينها وتجعل الأخبار يخدم بعضها بعضاً .

تزوج الحارث من رباب بعد أن هام بها حبا ، «ثم رأت فى منامها ولذيذ أحلامها كأنها فى صحراء من الصحراوات ، وحولها فسيح البرارى المقفرات . . وخرج من تحتها نار متأججة ولها ألوان متوهجة » ، ثم أحرقت جميع ما على الأرض وبعد ذلك استدارت واستنارت ، فتلجأ إلى كاهن فيبشرها بمولود له شأن وأن والدته سوف تموت حين يخرج إلى الدنيا . ثم يموت الحارث فتلحق رباب بقومها وتستصحب معها فى الطريق غلاما لها فيراودها عن نفسها فتأبى فيدور بينهما صراع كان من شدته أن « دفق عليها الدم ولحقها الطلق بإذن خالق الخلق » . فيثور العبد ويضربها بالحسام ويتركها مجندلة فى البرية وبجوارها ذلك الرضيع ، وتسوق الأقدار أميراً يقال له دارم فيدفن المرأة ويحمل الطفل ليتبناه ويسميه « جندبة » . فيشب الطفل ويشتهر بالشجاعة والبأس ، وفى يوم تقوم معركة بين الأمير دارم وامرأة يقال لها الشمطاء فتأسره وتأسر أولاده فيهب جندبة لنجدتهم وينقذهم من الأسر ويشيع ذلك الخبر ويشتهر أمر جندبة فيأكل الحسد قلب دارم ويعزم على إخراج جندبة من بينهم . فخرج جندبة حتى لاح له خباء مضروب فقصده فخرج له منه « إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول ، فتأمله جندبة على ذلك

الطول فإذا هو شاب أجرد أمرد عليه درع من الزرد وهو مضاعف العدد» . ويدور بينهما قتال ينتصر فيه جندبة ويكشف الفارس عن نفسه فإذا هو فتاة تسمى « قتالة الشجعان » كانت قد حلفت ألا تتزوج إلا صنديداً يقهرها ، فرضيت بجندبة زوجاً ثم تصادف أن استخلص جندبة رحل الخليفة من أيدى غاصبين ، وحمل ذلك الرحل إلى الخليفة بالشام ومعه زوجه « قتالة الشجعان » التى ما إن يراها هشام بن عبد الملك حتى يقع فى حبها ويرسل إليها دايته فتغضب قتالة ويغضب زوجها ويخرجان من دمشق « إلا أنه (ياسادة) ماسار عن دمشق قدر ميل أو فرسخ طويل ولم يشعروا إلا وقد خرج عليهم كمين وهو قدر خمسمائة فارس وهشام فى مقدمتهم » . فيغتصبون قتالة ويسيرون بها نحو الشام ولا يستطيع جندبة أن يطاول يد الخلافة فيتسلى بزوجة جديدة عن قتالة التى امتنعت عن هشام حتى اغتاظ منها فقتلها . ويعلو شأن جندبة ثم يلحقه الموت ويترك زوجه حاملا التى تلجأ إلى عطاف أخى جندبة ، وكانت زوج عطاف حاملا أيضا فتضع بنتاً سموها ليلى « بوجه مثل القمر الوضاح لو بدت فى الليل المظلم لصار صباح ، كأنها تبتسم عن ثغر منظوم ، قد سرقت قدها من قضيب واستوهبت ردفها من كثيب . . . إلخ » . وفى اليوم نفسه تضع زوجة جندبة ولداً سموه الصحصاح «بوجه صبيح وقد مليح ولسان فصيح ، تبان النجابة من عينيه والشجاعة من كفيه . . . إلخ » . وهنا تبدأ السيرة فتتحدث عن قصة غرامية بطلاها « ليلى والصحصاح » . فتتشابه هذه القصة فى أولها مع قصص العشاق العذريين فقد أحب الصحصاح ابنة عمه وأحبته وأنشد فيها الأشعار ، فلما شاعت وقف عمه عطاف فى وجهه ومنعه من رؤية ليلى فزاد ما به ، وازداد النصح واللوم له . ثم اعتزل وأمه المضارب ، وكانت ليلى تبكى وترسل إلى الصحصاح تبثه الغرام وتنشد فيه الأشعار

ولكن الصحصاح لايكتفى بهذاالموقف السلبى فيخطو خطوة إيجابية فقد «خلا فى بعض الأيام بنفسه وقال : مالى أرى جسدى يذوب ذوب الرصاص ، فلم لا أسرع إلى الخلاص من ضيق الأنفاس ، فإلى متى أكون فى موضع لا أقدر فيه على ليلى ولا أنظر إليها ، وأنا ما فى عيب إلا فقرى ، وما لى ألا أخرج عن أرض بنى كلاب وأتغرب ، فإن مقامى عندهم سواء ، فإن غيابى وحضورى سواء وما لى لا أهج فى البرارى والقفار » . ويعزم الصحصاح على الإغارة على القبائل ويكتب له النجاح ويسوق الغنائم ويشتهر أمره ، فيأكل الحسد قلب عمه . ويخشى من منافسة الصحصاح على رياسة القبيلة ، فيدبر المؤامرات الكثيرة لقتله ، والصحصاح — تعاونه ليلى — يتغلب على كل المؤامرات ولكنه لا يحقد على عمه لأنه يحب ليلى ، بل أنقذ فى إحدى المرات عمه من مخالب الأسد ، فتنزل المحبة بدل العداوة فى قلب العم ، ويوافق على زواج الصحصاح من ليلى ، ولكن الصحصاح يعزم على أن يسوق الكثير من الأموال مهراً لليلى ، فيخرج فى طلب ذلك المهر ومعه عبده نجاح يقطعان الروابى والبطاح ، حتى وصلا إلى واد كثير الغدران وإذا «بصياح عال ،وسيوف مجذبة بأيدى رجال ، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال ، وقد ظهرت جارية مليحة القوام ، وفى يدها سيف أبتر وهى تقول : وحق الركن والحجر ، لئن لم تطلقوا ابن عمى لأحطن هذا السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى » . ويستطلع الصحصاح الخبر وإذا بقصة حب طريفة بطلاها « لبنى وغانم » فقد نشأ غانم مع لبنى ابنة عمه فأحبها وأحبته وكان يعرف أنها له لأن أباه قبل أن يموت أوصى عمه بذلك وترك له المهر . ولكن العم كان شريراً فاستولى على المال وأخذ يعد غانماً الوعود حتى طلب غانم من عمه أن يبر بوعده فقال له : « ياولدى حتى تغنم لنا غنيمة » وهو يريد أن يخرج غانماً إلى الغارات حتى يلقى

حتفه فيزوج ابنته لبعض الملوك وخرج غانم وأخذ يغير على القبائل حتى غنم الكثير وعاد محملا بالمال ، ولكنه فوجىء بأن عمه قد زوج فى غيابه لبنى لملك حضرموت بعد أن أخبر ابنته أن غانماً قدقتل فى إحدى الغارات ويرتاع غانم لهذه الأخبار ولكنه يعزم على أمر فيتنكر فى ثياب راع ويدخل على لبنى خيمتها فتثب إليه فيعتنقان وتعرض عليه فكرة الهرب فيحملها خلفه على فرسه . ولكن القوم ينتبهون فيحيطون بغانم ، ويدور قتال يتكاثرون فيه على غانم ويأسرونه ، ولما عرف الصحصاح سر هذا الصياح هب لنجدة عاشق مثله فتقلد سيفه وقتل الزوج والعم ، ثم زوج غانماً من لبنى ثم سارفى طريقه حتى سمع أيضاً صياح نسوة وإذا بقطاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله الحرام فيسارع الصحصاح لإنقاذهم لأنه كما يقول عن نفسه « ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف » ويتبين له أنه أنقذ مروة بنت عبد الملك التى تخلفت عن الركب مخافة من شاعر يقال له عمر بن أبى ربيعة المخزومى كان يتعرض للنساء ويصف محاسنهن وتعزم عليه أن يسير معها إلى دمشق لينال جائزته ، ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب . ومن الطريف أنه فى غمرة هذه الأحداث لم تغب ليلى عن باله ، فحين يفتح له الخليفة باب التمنى يقول « ما أتمنى إلا مهر ليلى » وحين طلب منه مسلمة بن عبد الملك أن يتمنى على أبيه أن يعطيه ملك العرب يرد على مسلمة : « يامولاى ومهر ليلى أين يكون » . ويجعله الخليفة ملكاً على العرب ويجعل مشيره ابنه مسلمة ، ثم يحمله الاشتياق على العودة إلى ليلى ، وفى طريقه يمر بمضارب الحريث بن الحجاج وإذا به يفاجأ أن ليلى فى هذه المضارب تنتظر أن تزف إلى الحريث ، وأن غانماً صديقه أسير عند الحريث ويتكشف له الأمر ويعرف أن الحريث فى غيابه قد أغار على قومه فلما رأى ليلى هويها فخطبها من أبيها فوافق ، ثم سار بها إلى محلته . وفى

طريقه مر على ابن خالته غانم ولما علم غانم أمر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح الذى اصطنع معه ومع لبنى معروفاً طلب من الحريث أن يرد ليلى إلى قومها فأجابه: «يابن الخالة إن أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع وليلى الكلابية مثل ليلى العامرية وقد أصبحت أنا فى هواها مثل قيس ابن الملوح من بلواها ، والوصال إليها أصلح ومن وصل إليها فقد أفلح ، فأعرض عن هذا النصح ولا تنصح . . . » ثم يسوء الأمر بينهما ويدور قتال ينتصر فيه الحريث ويأسر غانماً ويأخذ ليلى . ولما علم الصحصاح بهذه الأخبار قاتل الحريث وانتصر عليه واستخرج غانماً واستخلص ليلاه. وما زال شأن الصحصاح يعلو فيستدعيه الخليفة لحرب الروم . فيسير إلى بلاد الروم ومعه مسلمة . وفى بلاد الروم أتى إلى جانب النهر ، فرأى عشر جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار . . وكانت بينهن جارية مليحة القوام حلوة الابتسام . . وهى تقول للجوارى: تقدمن حتى أتصارع أنا وإياكن قبل أن يغيب البدر» وكانت تنتصر على كل جارية ثم دخل الصحصاح معها فى صراع انتصرت عليه ، ثم يتبين له أن هذه الجارية الرومية هى الملكة ألوف وتأخذه معها إلى قلعتها وتسمعه من الغناء مايدهشه . ويعود فيخبر مسلمة بذلك ، فيتوله بها مسلمة على السماع وينتهى الأمر بإسلام الملكة ألوف وزواجها من مسلمة. وتمضى السيرة فتتحدث عن قصة حب أخرى للصحصاح ، فقد خرج ذات يوم للصيد فتبع ظبية جميلة ولحقها بقرب حلة من حلل العرب ، ثم خرجت من تلك الحلة فتاة «لم ير الصحصاح مثلها ولا فى بنات الروم شكلها » . فتوله بها ودعته الجارية للنزول فأجاب وبسطت له بساطاً ثم حضر أبوها فبالغ فى إكرام الصحصاح ولما طلبها منه أجاب فتزوجها ومكث عندهم مدة ركبت ليلى فيها الهواجس لغياب زوجها ، ثم عاد إلى ليلى فأخبرها أنه كان فى ضيافة بعض العرب . وظل على علاقته مع أمامة يرسل إليها الهدايا ويذهب إليها دون أن تعلم

ليلى ، حتى وضعت له أمامة ولداً أسمته « مظلوماً » فى اليوم الذى وضعت فيه ليلى ولداً أسمته « ظالماً » . ولكن رجلا يقال له عامر كان يهوى أمامة ويطمع فى أن يتزوجها فخيب الصحصاح آماله فانتهز هذا الرجل فرصة وجود الصحصاح عند أمامة فجاء إلى ليلى فأخبرها بكل شىء ، وفى أثناء عودة الصحصاح من عند أمامة علم بما فعله عامر فخجل أن يرجع إلى ليلى وعزم على أن يقصد إلى الأمير غانم . وهنا تبدأ السيرة فتحدثنا عن قصة التقائه فى طريقه بجنية تمثلت له فى صورة « جارية حسنة القوام ، مليحة الابتسام » فيحبها الصحصاح ويلاقى فى ذلك الصعاب الجمة فقد كانت الجنية تحب بنتاً مثلها من الإنس ، فى الوقت الذى يحب فيه هذه الجنية ابن عمها الذى لا تحبه لأنه ينكح بنات الإنس واستطاع الصحصاح أن يتغلب على كثير من العقبات وأن يتزوج الجنية « ست الغزلان » . . . إلخ .

وهكذا تسلمنا السيرة من قصة إلى قصة ، وكل قصة تتشابك مع الأخرى ، فتتشابك مع حكايات عن المكر ، والشجاعة ، والجن والاحتيال. وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية وأصبح هدفها جذب القارئ والتأثير عليه ، بل لا تجد حرجاً فى مخالفة التاريخ فى أشياء معروفة ومشهورة فمثلا تجعل عمر بن أبى ربيعة شاعراً من أهل الشام ، وتتحدث عن علاقة طيبة بين عبد الله بن الزبير أمير مكة وبين الخليفة عبد الملك بن مروان مع أن التاريخ يفيض فى الحروب التى دارت بينهما والتى انتهت بقتل ابن الزبير. ومن الدلائل على أن السيرة تبغى التأثير على القارئ وتؤثر الأسلوب القصصى — استغلالها لعنصر الطبيعة فى تهيئة الجو وخلق مجال يؤثر على القارئ ، فهى تكثر فى مواقفها من وصف الطبيعة التى تحيط بالعاشقين وصفاً ينمى الموقف ويبرزه ، وان كانت فى بعض هذه الأوصاف تخرج عن المعهود فى البيئة العربية والطبيعة الصحراوية . واقرأ مثلا هذه اللقطة التى تمهد فيها

للحب بين ليلى والصحصاح وانظر كيف تستخدم مظاهر الطبيعة استخداماً مؤثراً ، وفى الوقت نفسه نلاحظ أن هذه الأوصاف بعيدة عن بيئة القبائل العربية . . « وخرجت ليلى فى بعض الأيام مع أترابها للغدير ، تتفرج على الزهر المنير ، وحولها جميع جوارها والبهاء والحسن قد حازها . وكان من الاتفاق أن الصحصاح خرج يتفرج على الربيع والأرض قد اكتست حلتها الخضراء ، وقد فاضت روايح أزهارها ، وهى أزكى من عطر عطارها كما قال فيها :

محاجرها بيض وأحداقها صفر وأجسامها خضر وأنفاسها عطر

(قال الراوى) : هذا والشقائق كالزنوج وقد حاربت فسالت دماها وهى تلمع باحمرارها والأقحوان فى وسطها والسوسبان كأنه أذناب الطواويس فى بسطها والأرض قد فرشت بأنواع الملابس ، فجعل الصحصاح يتفرج على الغدير وينظر إلى ليلى وهى كأنها القمر المنير فهاج جنانه ونطق لسانه . . . »

وتتشابه بعض هذه القصص فى بدايتها ببعض القصص العذرية. فقصة « ليلى والصحصاح » تشبه فى مبدأ أمرها قصة « ليلى وقيس » . ولكن الصحصاح يتطور بشخصيته فيجعل من حبه دافعاً لأن يتغلب على واقعه ويعلو على فقره فيسير فى البلاد طالباً الغنى والثراء ، يدفعه الحب إلى إتيان المعجزات وإلى الوصول إلى المجد بل يصل به الأمر إلى حب الفضائل أو كما يقول « ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف » كما يحدث للصوفى الذى ينتقل من حب المعشوقة إلى حب الذات الإلهية .

وقصة « أمامة الصحصاح » تشبه قصة « لبنى وقيس » فى بدايتها فقد خرج الصحصاح يوماً إلى الصحراء ثم يصل إلى خيام بنى الوحيد ويقع نظره على أمامة فيتوله بها ، وتتوله به وتكرمه ، ويأتى أبوها فيكرمه

أيضاً ، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحد ، فهناك عاشق آخر لأمامة يحقد على الصحصاح فيوشى به إلى ليلى . وهنا تتشابك هذه القصة مع قصة « ليلى والصحصاح » ويستمر هذا التشابك فقد أنجبت أمامة « مظلوماً » وأنجبت ليلى « ظالماً » . وتتحدث السيرة بعد ذلك عن الصراع بين « مظلوم » و « ظالم » الذى يحاول فيه المظلوم تثبيت حقه . . إلخ .

وتذكرنا هذه القصة بقصة « مضاض ومى » التى ذكرها صاحب التيجان على أنها حدثت أيام العرب البائدة ، فقد أحب مضاض ميا ، وباركت الأسرتان هذا الحب ، وانتظرا تحديد يوم ليبنى بها ، ولكن يظهر فى الجو رجل يحب ميا ولا تحبه ، فيغيظه هذا الحب الذى سيتوج بالزواج ، فيشى إلى مى ويخبرها أن مضاضاً يحب أخرى ثم ينشدها من الأشعار التى ينسبها إلى مضاض يبث فيها حبه للحبيبة الأخرى ، فتغتاظ مى وتخبر أباها بذلك الذى تأخذه العزة والأنفة فيفسخ خطبة مضاض ويترك لمضاض وأسرته الديار ويهاجر ، ولما سمع مضاض بالقصة تبعهم ، واستعطف ميا وأنشد فيها الأشعار ، ولكنها لا تأبه له ولا لأشعاره ، فيموت مضاض فى الصحراء عطشاً . وحين يبلغ الخبر ميا تحرم على نفسها الماء وتعزم على اللحاق بحبيبها ، وتوصى أن تدفن بجانبه فى المكان المسمى « موطن الموت » .

وتتشابه قصة « لبنى وغانم » مع قصة « عفراء وعروة » ، فى بدايتها فغانم مثل عروة ينشأ مع ابنة عمه ، فيحبها وتحبه ، ويعده عمه بالزواج ، ثم يخرج — تحقيقاً لرغبة عمه — للغنيمة وكسب الأموال ، وينتهز العم غيابه فيزوج ابنته من رجل ثرى . ولكن القصة هنا تتطور أكثر ، فقد حضر غانم قبل أن تزف « لبنى » ، وتنكر حتى اختطفها وحملها على فرسه ، ولكن القوم ينتبهون له ويقبضون عليه . وهنا يتشابك أمر غانم

مع أمر الصحصاح ، إذ يهب الصحصاح لمعاونة هذا العاشق ، ولا يكون موقف التعاون بين هذين العاشقين موقفاً صغيراً فقيراً ، كهذا الموقف الذى نقرؤه عن التعاون بين القيسين ، أو التعاون بين جميل وكثير ، بل إن الموقف فى هذه السيرة يزيدها ثراء ونمواً ، فقد زرع المحبة بين هذين العاشقين وجعل منهما قوة واحدة متآزرة ، فحين يرى غانم ليلى عند الحريث يحاول خلاصها وتدخل من أجل ذلك فى قتال ينتهى بأسره ولا ينقذه من الأسر إلا صديقه الصحصاح .

ومن الطريف أن تقارن بين الحكايات الحسية التى كان بطلها ابن أبى ربيعة وبين تلك الحكاية مثلا التى ذكرتها السيرة عن الصحصاح والأمير مسلمة بن عبد الملك من جانب ، وبين الملكة ألوف من جانب آخر ، فإن القصة الأخيرة تتوسع فى شرح الجو ، وفى حسن الوصف ، وفى التشابك مع الأحداث الأخرى ، وفى تأثير هذه العلاقة على الحروب التى دارت بين العرب والروم . وفى التعبير عن نظرة العرب إلى بنات الروم إلخ . . .

وإن أردنا مثالا صغيراً نقارن فيه صنيع الكتب العربية القديمة وصنيع السير الشعبية ، فإننى أذكر موقفاً متشابها وهو موقف العاشق من الظباء ، فإن الكتب تكتفى بذكر أن قيساً كان يتعاطف مع الظباء لأنها شبيهة بليلى وأنه كان يطلقها من شراكها . ولكن هذه السيرة تتوسع فى هذا وتصفه وصفاً يثير الشوق والانتباه وتتحدث عن مواقف جذابة للصحصاح مع الغزلان فى قصته مع ليلى ، ومع أمامة ، ومع ست الغزلان.

* * *

(ب) وتتطور هذه القصص أكثر وأكثر حين تنتقل إلى الأدب الفارسى والأدب التركى ، إذ ألف الأدباء بين شتيت الأخبار التى روتها الكتب العربية وأضافوا إليها أشياء من مبتكراتهم ولحموا بين كل

ذلك ، من أجل غاية واحدة تسيطر على جميع أحداث القصة ، وأخرجوا قصصاً ذات طابع فلسفي وفكرى ، وجعلوا الحب العذرى مرحلة مجازية إلى حب آخر أرقى وأبقى وهو الحب الإلهى .

وقد عقد الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه القيم « الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية » — باباً عرض فيه أشهر النصوص الأدبية لكتاب الفرس وشعرائهم الذين ألفوا فى موضوع ليلى والمجنون مثل نظامى ، وسعدى الشيرازى ، وأمير خسرو الدهلوى . وعبد الرحمن الجامى ، وهاتفى .

ومن التجنى أن نطبق قواعد القصة الحديثة التى عرفت فى القرن التاسع عشر على هؤلاء الكتاب الذين عاشوا قبل أن تعرف هذه القواعد ولهذا لن نثور على مانراه مخالفاً لهذه القواعد كتدخل الكاتب فى أثناء القصة لبث أفكاره وفلسفته ، أو التعقيب على فصول القصة بالشرح وبيان المغزى ، أو حشر قصص أخرى فى سياق الكلام . . . إلخ .

ولكن لاشك فى أن هذه القصص أرقى بكثير من أخبار العذريين العرب ، فهى وحدة متسقة مؤلفة لغرض ، تحمل أفكاراً فلسفية ذات تيارات عالمية ، وشخصيات يصدرون عن موقف فلسفى ولهم نظرتهم الخاصة نحو العالم والمجتمعات والملوك والحكام . . إلخ . ولا غرو فقد كان مؤلفوها من خاصة الناس وممن تثقفوا ثقافة فلسفية رفيعة وتقلدوا مناصب راقية وممن وهبوا مشاعر خاصة .

وقصة عبد الرحمن الجامى (١٤١٤ — ١٤٩٢ م) تعتبر خير القصص الفارسية فى هذا الموضوع وأكثرها ابتكاراً ، وأعمقها فلسفة وأروعها تصويراً .

والقارئ لهذه القصة يجد تشابهاً إلى حد كبير بينها وبين ما روى من أخبار العشاق العذريين فى الأدب العربى .

فهيكل هذه القصة يتفق مع ما هو معروف عند العرب من أن شابا

حساساً من قبيلة بني عامر ببلاد نجد يسمى « قيساً » عشق فتاة تسمى « ليلى » عشقاً عذريا ملك عليه كل حواسه ، وعشقته ، ثم خطبها من أبيها فرفض فاشتد به الوجد . ثم زوجت من شاب من بنى ثقيف فصعب الأمر على قيس وهام على وجهه فى القفار يتعاطف مع الظباء وينشد الأشعار ، وانتهت هذه القصة بوفاتهما بسبب الحرمان والعشق .

وقد تأثر المؤلف بالأخبار التى روتها الكتب العربية تأثراً كبيراً . وكان جميلا من الدكتور محمد غنيمى هلال أن يذكر — فى هوامش هذه القصة التى ترجمها عن الفارسية — الأخبار العربية التى تأثر بها المؤلف .

ولكن الجامى اختار من هذه الأخبار ما يخدم فنه القصصى وسبكها بطريقة مشوقة ووسع فى مواقفها توسيعاً جذاباً . واقرأ موقفه مع صائد الظباء والكلام الذى وجهه لهذا الصائد حتى « ذاب شمع قلبه رقة فرمى بسيفه من يده » .

وكان الجامى موفقاً فى خلق الجو القصصى ، ووصف الطبيعة والبيئة وصفاً رائعاً يخرج به أحياناً عن البيئة والطبيعة العربية ، وكان يورد فى قصته الخطابات المتبادلة بين قيس وليلى . ومن الطريف أن نقارن بين هذه الخطابات وبين الرسائل التى تضمنتها قصة قيس الشعبية كما جمعها مجهول والتى سبق أن أوردنا نموذجا لها ، فإن الخطابات عند الجامى مفصلة عميقة تخدم الغاية ، على حين تكتفى — عند الأديب الشعبى — بالشكوى من العاطفة ، وهذا الفرق بين الرسائل كذلك الفرق الذى لا بد أن يكون بين رجل كالجامى مثقف يهدف إلى غاية من قصته ، وبين رجل من عامة الناس يهدف إلى التأثير على السامعين .

واقرأ بصفة خاصة الفصل الذى يتحدث عن وفاة ليلى فإنه مؤثر ورائع ، وقد ربط المؤلف فيه بين مظاهر الطبيعة وبين نفسية ليلى وهى على فراش الموت « أقبل الخريف بريحه ، فخلعت الأشجار على مهب ريحه

ثيابها ، وتعرت من خلعها الأخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان ، كانت ليلى – تلك الوردة ربيبة المروج – طريحة على الأشواك ، أشواك الموت . . إلخ » .

وجعلت ليلى تلقى بوصيتها إلى أمها بطريقة مؤثرة تثير الدموع « . . . وحين تشد الروح رحلها ، ستمدين من أجلى بساط المأتم ، فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموعى ، وانى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل على أنى شهيدة الحب . . . واست فى حاجة إلى عصابة على الرأس فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق . . . وأنزلينى من ضريحه الطاهر ، وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه . . واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون لرأسى تاجاً ، وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر ، ويومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه » .

وفوق هذا ، فإن الجامى لم يقف عند حد الحب العذرى كما هو وارد فى الأخبار العربية ، بل جعل هذا الحب مجازاً لحب أسمى هو الحب الإلهى « حذار أن تظن أن المجنون قد فتن بحسن المجاز . فعلى الرغم من أنه قد صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى ، فقد رمى آخراً بالجام من يده فتحطم ... فتفتحت فى بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة ... » وقد كانت هذه الغاية هى التى تسير أحداث القصة عند الجامى ، وتجعلها تلون بعض شخصيات القصة ، فقيس معد لهذا منذ البداية ، لأنه « من عجنت طينته بالعشق وخطت على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو أمضى عمره فى غسله منها ومحوه » . وزوج ليلى وقع فى حبها وعاش من أجلها ولم يجعله هذا الحب يحقد على قيس أو ليلى « ولم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها . . . وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى ، متخذاً منه زاداً لأخراه » .

(ح) وفى الأدب العربى الحديث . دخلت هذه القصص إلى مجال الفن الخالص . ورواية ليلى والمجنون لأحمد شوقى تعتبر رائدة فى هذا المجال .

وقد اعتمد فى روايته تلك على الأخبار التى روتها الكتب العربية وبخاصة الأغانى . ولكنه ألف بين تلك الأخبار بطريقة فنية وأضاف إليها أشياء من عنده كمنظر الجن فى الفصل الرابع ، وخالف التاريخ فى بعض الأحيان وذلك كإسناده دور الوساطة الفعلية إلى ابن عوف . والتاريخ يذكر أن ابن عوف هم بهذه الوساطة ولم يفعل ، إنما الذى فعل ذلك هو نوفل بن مساحق . ثم خرج لنا بعد ذلك بمسرحية فنية ، فيها أدوار متعددة كدور الصديق الذى يقوم به زياد ، ودور الغريم الذى يقوم به منازل . ودور المنافق الذى يقوم به نصيب . وفيها تحليل . وفيها قوة وغير ذلك من أمور تتطور بهذه القصة من مرحلة السذاجة والشعبية إلى مرحلة العمق والفن .

وقد وقف بمسرحيته عند حد الحب العذرى كما روت الكتب العربية ، ولم يصنع صنيع شعراء الفرس والترك ، فيتحدث عن حب آخر وهو الحب الصوفى . وإن كان شوقى يصف ليلى وصفاً فيه مثالية ، ويظهرها بصورة فيها هيبة وجلال . استمع إلى حديث « ورد » الزوج إلى قيس يشرح له مأساته مع ليلى :

منذ حوت دارى لى ماخلوت من ندم
كانت إطافتى بها كالوثنى بالصنم
وربما جئت فرا شها فخانتنى القدم
كأنها لى محرم وليس بيننا رحم

أو قوله :

فشعرك ياقيس أصل البلاء لقيت به وبليلى الضلالا

كساها جمالا فعلقتها فلما التقينا كساها جلالا

إذا جئتها لأنال الحقوق نهتنى قداستها أن أنالا

* * *

وخلاصة الفصل أن تطور قصص العشق كان ضئيلا ، لأن الراوى لم يكن على وعى بالعمل الذى لا ينبغى أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما .

وإنما ظهر التطور بوضوح فى السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك ، ثم بصورة أكثر وضوحاً فى الأدب العربى الحديث .

الفصل الرابع

من قصص الحب

يعتبر هذا الفصل تطبيقاً للدراسة السابقة ، إذ سأذكر فيه نماذج كاملة لهذه القصص ، اعتمدت فيه على الكتب العربية القديمة مثل التيجان لوهب بن منبه ، ومصارع العشاق لابن السراج . وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى .

وسيتبين من هذه النماذج أن أدبنا العربى غنى بهذا النوع من القصص الجذاب وأن الأمر يحتاج إلى حساسية خاصة تتلمس هذه القصص من بين بطون الكتب ، وتتفطن إلى هذا النوع من الأدب السلس السهل الذى لا ينبغى أن تقل العناية به عن العناية بالشعر والرسائل .

وقد ذكرت ثلاثة نماذج فقط ، ينتهى النموذج الأول بنهاية حزينة وينتهى النموذج الثانى بنهاية سعيدة .

والنهاية فى القصة الفنية القصيرة الحديثة تعتبر أهم ركيزة ، فهى الشىء الذى يلوح فى ذهن القاص الفنان فى كل حركة من حركات القصة إذ يستجمع كل خيوط القصة ويعقد ما شاء له التعقيد ويضع بينها علاقات . ثم إذا بتلك الخيوط تصل إلى النهاية وصولا طبيعياً ، فتفك كل عقدها ، وتمنطق — بطريقة فنية — كل علاقاتها ، ولهذا سماها البعض « لحظة التنوير » "Moment of Illumination". أى اللحظة التى تبرز كل معنى سبقها وتلقى الضوء عليه .

فالنهاية مع أنها آخر شىء فى القصة ، إلا أنها عند الفنان الناجح سيف مصلت على كل أجزاء القصة ، يبتر منها ما لا أهمية له ولا فائدة

منه ، ويبارك ما يخدم النهاية ويحرق البخور فى محرابها .

وهذا يعنى أن النهاية التى هى فى ذهن القاص تتحكم فى بناء القصة ونسجها نسجاً معيناً لا نرضى إلا به . أو بعبارة أخرى : إن النهاية نتيجة حتمية لبناء خاص ، فهى ليست من اختيار القاص ، له أن يضع نهاية أو يحذف أخرى . بل هى أمر مكتوب عليه ، فرضته أحداث القصة ومنطقها الخاص .

ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهاية ، مفهوماً لدى القاص القديم بوجه عام فقد كان يترك قصته تسير بدون رقابة ، حتى تحط رحالها وتختار النهاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها لها السامعون .

ولعلكم قرأتم خبر ذلك الرجل الذى كان يستمع إلى سيرة عنترة ، ثم وقف به القاص عند أسر عنترة . وانفض السامر . ولكن الرجل لم يهدأ له بال ، وذهب إلى منزله مغضباً ، وقدمت له زوجه الطعام فرفضه وقام ولم يهدأ حتى رجع إلى منزل القاص وخبط على بابه بالليل ، فوجده نائماً فأيقظه ، وقال له : تنام وقد سجنت الرجل . وما زال به حتى قرأ له القصة وأخرج له عنترة من السجن ، ووقف به عند نهاية ارتضاها ، مما أسعد الرجل وجعله ينفح القاص بالدراهم ويعود إلى منزله راضياً .

إنما عرفت تلك الأهمية للنهاية فى العصر الحديث عند اكتشاف القالب الفنى للقصة القصيرة . والسيد الأول للقصة القصيرة "Pœ" يقول : « يجب ألا تكتب أية عبارة — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — منبثقة عن ميل لم يكن موجوداً فى التخطيط المبدئى ، فتتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن واضحة المعالم غير مهزوزة . . . (١) » .

وعلى ذلك فلا ينبغى أن نتوقع فى قصص الحب إلا أن تكون نهايتها

---

(١) Encyclopeadia Britanica "Short Story".

مرتجلة ، تخضع لمزاج القاص ، ولمزاج المستمع ، ولم تكن تتحكم فى بناء القصة . فالقصة التى تنتهى نهاية سعيدة لا تختلف فى بنائها وأحداثها ونفسيات شخصياتها ، عن القصة التى تنتهى نهاية قاتمة . ولا يحتاج هذا إلى شىء أكثر من أن يقول الراوى « وغدونا فى اليوم الرابع نستعدى أثره حتى وجدناه فى واد كثير الحجارة خشن ، وهو ميت بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه » (١). أو أن يقول : « وضربت القبة وسط الحى وأهديت إليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة فخرج إلى وقد تبين الجذل فى وجهه » (٢) .

والقصص التى تنتهى نهاية سعيدة كانوا يضعونها تحت عناوين توحى بذلك ، فابن الجوزى يعنون بقوله : « سياق ذكر جماعة حصل لهم مرادهم من تزوج النساء المحبوبات أو ملك الجوارى » ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة كقصة عمارة جارية عبد الله بن جعفر . وداود الأنطاكى يعنون « ذكر من حظى بالتلاق ، بعد تجرع كأس الفراق » ، وهذا القسم هو الذى ترجمه صاحب الأصل « بمن ساعده الزمان بمطلوبه ، حتى ظفر بمحبوبه وذلك إما بشفاعة أو جاه أو حيلة أو عناية أزلية » ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كالقصة التى يقصها معبد المغنى عن شاب « خرج وقد سال العقيق مع فتية للتنزه ، فإذا هم بنسوة ، بينهن فتاة ، قد فضحت الشمس ، بعينين لا يرتدان إلا باقتناص

(١) نهاية قصة المجنون : انظر الأغانى ٢/١٣ « طبعة ساسى » .

(٢) نهاية القصة التى قصها ابن أبى ربيعة فى مجلس تذاكروا فيه أخبار العذريين عن صاحبه أبى مسهر وما جرى له بسبب العشق . وتلك النهاية تتفق مع مزاج عمر وميله إلى الجانب السار فى الحياة . انظر القصة فى مصارع العشاق ص ٥٠ .

النفس » فعلقها ، ثم خطبها إلى أهلها فأبوا . فلما علم ابن جعفر بقصته ركب إلى الخليفة وقص عليه القصة فكتب إلى عامله بالحجاز بأن يسيرهم إليه ثم أمهرها الخليفة وزوجها منه . وغير ذلك من قصص سعيدة .

* * *

وإذا كان لا يرضى نهم القارئ هذه النماذج الثلاثة التي ذكرتها ، فليسمح لي أن أحيله إلى الفصل الأخير من رسالتي للماجستير ، فقد أوردت فيه نماذج كثيرة ثرية ، ولم أذكرها صماء لاتبين ، بل استنطقتها فحللتها ونقدتها وقارنتها بما يشبهها من نماذج أخرى .

١ ـ موطن الموت :

هذه القصة قد وردت فى كتاب «التيجان» لوهب بن منبه، وهى ترجع إلى الفترة القديمة التى يسميها المؤرخون « العرب البائدة » . والأخبار التاريخية عن هذه الفترة قليلة ، والقصص التى رويت عن هذه الفترة ـ وإن لم تكن صادقة تاريخيا ـ فإنها تفيدنا فى أنها تعكس الروح العربى وتشف عن نفسيته .

وهذه القصة ذكرها الحارث بن مضاض الجرهمى ، فإن هذا الرجل حين عصاه قومه ، ورموا بالتابوت الذى فيه صحف الزبور إلى مزبلة من مزابل مكة هلكوا. فخرج الحارث هارباً يجول فى الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه وطالت غربته نحو ثلثمائة عام ، إلى أن التقى فى غربته بإياد بن نزار ، وكان موعوداً أن يرد الحارث إلى مكة بعد طول غربته . وفى أثناء طريق عودتهما إلى مكة أخذ الحارث يقص على إياد قصصاً عجيبة . وفى يوم مرا بمكان، فقال الحارث لإياد : أنزلنى . فأنزله . فقال : أقصد بى الزيتونتين ، فقصد به نحوهما ، وبينهما صخرة عظيمة منحوتة فطاف بها طويلا ، ولمسها بيديه علوا وسفلا ، ثم قال لإياد : يا بنى هذا الموضع يسمى « موطن الموت » ، ثم بكى حتى غسل دمعه وجهه ولحيته وأنشأ يقول شعراً . ثم ابتدأ بذكر السبب الذى من أجله سمى «موطن الموت» ، وجعل يقص قصة ابن أخيه مضاض وحبه لمى .

ولنتركه يكمل القصة بأسلوبه السهل المسترسل :

« لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك ، لم يكن بمكة ولا ما والاها أجمل منه ، وأنه كان من بنات عمه من بيت الملك جارية تسمى ميا بنت مهليل بن عامر صاحب الشعب ، وكانت معه فى نسق واحد ، وكانت أجمل من رأته العيون ، ففتن بها وفتنت به وشب معها وشبت معه فى حى

واحد ، وصان منزره عنها ، وكان ذلك خيفة الطعن فى الملك ، فلما بلغ بهما الهوى مبلغه ، وحذرا من الفضيحة أو السقم والموت بعثا إلى . فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما إلى بعض ، فأرسلت إلى مهليل بن عامر بن عمرو وأعلمته ما كان منهما فقال لى : أيها الملك ، أنت وليهما ، افعل بهما برأيك وزوجها منه . وقد هجم علينا الشهر الأصم رجب وكنا لا نحدث فيه حديثاً غير الطواف والعمرة حتى ينسلخ . فقلت له : يا مهليل ينصرف رجب وأفعل . وإن مضاضاً اعتمر وطاف ، وبلغ ذلك ميا ، فأقبلت تعتمر وتطوف . متنكرة غيرة على مضاض أن يتعرض له متعرض. ومضاض لا يعلم بمكانها . وإن قيس بن سراج الجرهمى من رهط حقير فى جرهم رأى ميا فهويها وهى لا تعلم ، ومضاض لا يعلم بذلك . وكان قيس يراعى أحوال مى . فلما بلغه أنها اعتمرت خرج إلى الطواف ليقضى لبانته من النظر إلى مى فكانت مى تطوف وتراعى أحوال مضاض ومضاض لا يعلم بذلك ، ويطوف قيس فى إثر مى ، ومى لا تعلم بذلك . وإن رقية بنت البهلول الجرهمى طافت ، وكان يوماً قائظا ، فطافت رقية بنت البهلول فعطشت عطشاً خافت على نفسها منه الموت واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم ، فلما أبصرت مضاضاً نادت به لشبيبته وحملها عليه حالة الشباب ، فقالت له : يا مضاض ، اسقنى جرعة من ماء فإنى خشيت أن أموت ظمأ ، فأمر فناولها ، فرأته مى حين ناول رقية الماء ، فاشتعل قلبها غيرة . فسقطت مغشيا عليها وجعلت ترعد ولا تدرى ما هى فيه . ونظر إليها الحجيج فقيل لهم : عرضت. وإن ميا أدركت نفسها فقامت ، فلم تستطع الطواف وولت إلى منزلها . وكان منزل أبيها مهليل فى سفح جبل بمكة فأتت أباها فقال لها : ما الحجيج يا بنية افترق . فقالت له : لم يفترق الحجيج يا أبة ، ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواى واستعانتى ، لأنك عمادى ورجائى . فقال : فمالك يا بنية. قالت

له : انصدع قلبي صدعاً لن يلتئم بعدها صدعه . قالت : يا أبت ؛ إن مضاضاً ابن عمي دعا قلبي فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى ؛ قالت له : رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق روحي جسمي أسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمري ، ورأيت أنه بادل حسباً بحسب وخطراً بخطر . ولم يبلغ والله خطر البهلول مهاليل بن عامر . ولا رقية بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر . قال لها أبوها : صدقت ، لا ورب الكعبة ، ما يكون ذلك . قالت له : يا أبت لن والله أقيم بموضع يكون فيه مضاض بن عمرو أبداً ، وإني راحلة إلى أخوالي ، وأنشأت تقول :

مضاض ، غدرت الحب والحب صادق
وللحب سلطان يعز اقتداره
غدرت ، ولم أغدر وللعهد موثق
وليس فتى من لا يقر قراره
إذا جاءني ليل تململت بالذى
دعا كبدي حتى تمكن ضاره
أبيت أقاسي النجم ، والليل دامس
وللنجم قطب لا يدور مداره
إذا غاب لم أشهد وكان مجالسه
مجلسي ، وداري حيثما كان داره
إذا هاج ما عندي لأول عهده
علاه اشتعال ما يطاق استعاره

وإن قيس بن سراج أتاها وأنشأ يبث لها أخباراً ليفرق بينها وبين مضاض لما رأى من غيرتها حين سقطت بالطواف ، فعمل شعراً على لسان مضاض وشعراً على لسان رقية وقال لها : يا مي ، رأيت عجباً . قالت : هو ؟ قال : رأيت مضاضاً واضعاً كفيه على قرون رقية بنت البهلول في

الطواف ، وهو يدافع عنها أهل الطواف سائحاً وبارحاً ، ثم استسقته ماء ، فناولها سقاء بيده فشربت وناولته وأنشأ مضاض يقول : قالت : ما الذى قال يا قبيس ؟ قال لها : قال :

رقية قلبي قد تباين صدعه
وللحب منى شاهد ودليل

رأيت الهوى يهوى والوصل واصل
فهل لك أن يلقى الخليل خليل

قال : فأجابته رقية ، فقالت :

أصون ، الهوى والطرف منى كاتم
ولا يعلمون الناس إذ ذاك ما دائى

سوى أننى قد فزت منك بنظرة
تجرعت عذب الحب منها مع الماء

قال : فالتمستها حمية قول قبيس ، وجعلت تقبل بين خيام الحى مرة وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه . ثم قالت لأبيها : نذرت لله نذراً يا أبت ، لنرحلن غداً إلى أمج ذات الضال وأنزل مع جسر بن قين . قال لها أبوها : نعم . وحملته الحمية والأنفة على ذلك . لما استبدل بخطره وقدره ، وإن رجلا من أهل الحى بلغ مضاضاً فأعلمه بما قال قبيس وبما قالت مى ، فركب فرسه وأخذ سيفه ، وخرج يريد قتاله ، وأنذر قبيس بمكان مضاض فخرج هارباً فى البيداء ، فما أدرى أى الأرض انطوت عليه إلى يومنا هذا . فلما لم يجد مضاض من قبيس أثراً وأعجزه هرباً رجع إلى مى ، وأصاب أهل الحى يحتماون ، وأصاب ميا راكبة على نجيب فى هودجها ، فقصدها . وقال : يا مى ، أعيذك بالله أن تغدرى من لم يغدرك ، وهذا موقفى بين يديك ، فجودى لمن لم يجترم جرماً ، وقال :

يعشى عن الناس لحظ طرفى
وعنك يا مى غير عاش
أتهجرينى بغير ذنب
وتقتلينى بقول واشى

قال : فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعاً وتبعها وهى تقول :

كذبت هوى وخنت إذاً يمينى إذا طالبت أثراً بعد عين
سأرحل والفؤاد له وجيب وأقطع للنوى بينا ببين
إذا شط المزار عن ابن عمرو نزلت بقرب جسر بن قين
كأنى حين أطلبه وصالا ويصرمه أطالبه بدين
تعست إذاً وخان أبى وأمى وبعت بعارها زينى بشين

وتجهمته . . . وتمادى الحى للرحلة ومضوا وافترق الحى من سفح الجبل . . . وإن مضاضاً لما ظعن الحى رجع ، فركب ناقة وبدل زيه وخرج فى طلب الحى ، وكان له خليلان من بنى عمه عمرو وعامر ، فركبا فى إثره حتى لحقاه فقالا له : يا مضاض ، خالفت تاج الملك بطلاب الهوى . قال لهما : غلب الهلع التجلد والجزع الصبر والهوى حاكم والقلب محكوم عليه . . . »

ثم جعل يدور حول أمج من حى إلى حى وهو ينشد الشعر ، ثم بلغه أن أباها يريد الرحيل إلى مكة فاستبشر بذلك وأنشد شعراً ، وفى طريقهم إلى مكة جعل يتعرض لها مرة عند موضع يقال له الجار وهو ينشدها شعراً يبثها عاطفته ومرة عند موضع يقال له الدار أنشدها فيه أبياتاً يسترضيها وينبئها بأنه إذا لم يكن منها وصل فسيكون موطن الموت داره » .

قال الحارث :

« فولت عنه وتجهمته وقالت له : والله لا ألقاك بها أبداً » ، فولى إلى صاحبيه وقال : « والله لا أشرب بعدها ماء » وأنف أن يدخل مكة ،

ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء ، فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه العطش وانصدع قلبه فى صدره لما خامره اليأس حتى بلغ هذا الموضع ، فغشيه الموت فأناخ ناقته ، وأخذ رأسه عمرو ، وجعله فى حجره وقال له : قصفك الدهر يا مضاض . فمتح عينيه وقال له : قصفنى قبيس . . . »

ثم جعل ينشد أبياتاً من الشعر إلى أن مات ، وأوصى أن يدفنه عمه الحارث بين الدوحتين .

أما ما كان من أمر مى ، فقد لقيتها رقية وأخبرتها بالحقيقة ، وأنه لم يكن بينها وبين مضاض شيء ، وأن الشعر منحول نحله قبيس ، فندمت مى ، وبعثت إلى مضاض فنعى إليها .

قال الحارث :

« فتوارت عن الحى إلى تلعة أمام الحى ، وتبعتها جارية من بنات الحى يقال لها سلمى بنت عمها كانت مؤانسة لها مطلعة على أسرارها ، فوجدتها ساكتة تنظر يميناً وشمالا كأنها جنت . قالت : يا مى ، أراك هبلاء وقد مات مضاض . قالت لها : قسوة قد أدركتنى منعتنى الدمع ، وفى الدمع راحة لو أصبت إليه سبيلا ، فلما سمعت نساء الحى ينتحبن وعلت أصواتهن أجابها الدمع وبكت ، وأنشأت تقول شعراً :

أيا موطن الموت الذى فيه قبره ... سقتك الغوادى الساريات الهوامع
ويا ساكنا بالدوحتين مغيبا ... لئن طرت عن إلف ، فإلفك تابع

ثم آلت على نفسها أيضاً ألا تشرب الماء ، وفى اليوم الثالث غشيها الموت ، فولت إلى الربوة ، فلما بلغت أعلاها سقطت .

قالت سلمى الجارية :

« فوضعت يدى على فمها فوجدته كالحجر الصلد ، فرفعت رأسها إلى بلسان غليظ وبصوت خفى ، فقالت بكلام ضعيف لا أكاد أبينه :

« قولى لأبى يدفننى بالدوحتين بجوار مضاض » .

حرصت أن أنقل لك نماذج طيبة من هذه المأساة التى أخذت الأجيال تتناقلها وتسمى المكان الذى حدثت فيه بموطن الموت .

وقد رأيت من هذه القصة كيف أن العرب من قديم يعرفون الحب العذرى ، خلافاً لكثير من الباحثين مثل الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء والدكتور محمد غنيمى هلال فى الحياة العاطفية الذين يرون أن الحب العذرى قد وجد بعد الإسلام الذى نقى القلوب وصفى العاطفة .

وقد رأيت كيف أن العرب يتعاطفون مع العاشق الصادق ويعيشون مأساته، ويحقدون على الواشى والعذول فقد ابتلعت الصحراء قبيساً فلم يظهر له أثر .

وانظر إلى وظيفة الشعر الذى يخلى هذه القصة ، وكيف يقوم بوظيفته حين يبلغ الصراع أوجه والعاطفة ذروتها ، فيخلق جوا مناسباً لهذا الجو ، ويحلق فى آفاق لا يستطيع النثر العادى أن يحلق إليها .

وأحياناً نقع على قطع نثرية أنيقة تختلف عن الأسلوب العادى للقصة وتشبه قطعة من الماس تتألق فى ثوب بسيط جميل ، وتطالعنا هذه القطع حين يكون الموقف غير عادى: كأن تكون البطلة أو البطل متأزماً . وذلك مثل قول مى تشكو إلى أبيها موقف مضاض حين رآها أسرعت بالعودة قبل الحجيج : « لم ينفرق الحجيج يا أبت ؛ ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواى واستعانتى ، لأنك عمادى ورجائى . . . انصدع قلبى صدعاً لن يلتئم بعدها صدعه . . . إن مضاضاً بن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى . . . رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ، ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمرى ورأيت أنه بدل حسباً بحسب وخطراً بخطر ، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل ابن عامر ، ولا رقية بنت البهلول مياً بنت مهليل بن عامر » . أو كقول

مضاض لصاحبيه وهما يلومانه على جزعه وأنه أضاع تاج الملك بطلاب الهوى فقال لهما : « غلب الهلع التجلد والجزع الصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه . . . »

وانظر إلى الختام المؤثر الذى انتهت به هذه المأساة وكيف صور القاص هذه النهاية تصويراً مؤثراً فقد رفعت مى رأسها وقالت للجارية بلسان غليظ وصوت خفى : قولى لأبى يدفنى بالدوحتين بجوار مضاض . ثم قضت وهى تنشد الشعر .

٢ - كتمت الهوى :

هذه القصة قد وردت فى كتاب « مصارع العشاق » وبطلها شاب حسن ، وحيد والديه ، وقد رزق به والده بعد صبر طويل أيس فيه أن يكون له خلف ، وقد أحب هذا الشاب ابنة عمه ، وكنا نتوقع وقد نشأ مدللا مترفا أن يضعف أمام حبه فيبوح به ، ولكنه على عهد الأخلاق العربية كتمه حتى وقع مريضاً وتحايل عليه الأهل فعرفوا سر مأساته ، ولكن الفتاة العربية - مع أنها تحبه - لا ترضى أن تبادله الحب من خلف أهلها .

قال الهيثم بن عدى :

إن مرة بن مصعب القيسى كان له أخ يقال له فهر ، وكانا ينزلان الحيرة ، وإن فهراً ارتحل بأهله وولده فنزل بأرض السراة وأقام مرة بالحيرة . وكانت عند مرة امرأة من بكر بن وائل، ولبثت معه زماناً لم يرزق منها ولداً حتى يئس من ذلك ، ثم أتى فى منامه ليلة فقيل له : إنك إن باشرت زوجتك من ليلتك هذه رأيت سروراً وغبطة ، فانتبه فباشرها فحملت فلم يزل مسروراً إلى أن أتمت أيامها ، فولدت له غلاماً فسماه إياساً لأنه كان آيساً منه ،فنشأ الغلام حسناً ، فلما ترعرع ضمه أبوه إليه وأشركه فى أمره ، وكان إذا سافر أخرجه معه لقلة صبره عنه ، فقال له أبوه يوماً : يا بنى قد كبرت سنى ، وكنت أرجوك لمثل هذا اليوم ، ولى إلى عمك حاجة فأحب أن تشخص فيها . فقال له إياس : نعم يا أبت، لك ألف عين وكرامة ، فإذا شئت فأنا لحاجتك . فأعلمه الحاجة ، فخرج متوجهاً حتى أتى عمه ، فعظم سروره به وسأله عن سبب قدومه ، وما الحاجة ؟ فأخبره بها ووعده بقضائها . فأقام عند عمه أياماً ، ينتظر فيها قضاء الحاجة ، وكان لعمه بنت يقال لها صفوة، ذات جمال وعقل ؛ فبينا هو ذات يوم جالساً بفناء

دارهم ، إذ بدت له صفوة زائرة بعض أخواتها ، وهى تهادى بين جوارلها . فنظر إليها إياس نظرة أورثت قلبه حسرة ، وظل نهاره ساهراً ، وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان ، ينتظر الصباح ، يرجو أن يكون فيه النجاح. فلما بدا له الصباح خرج فى طلبها ينتظر رجوعها ، فلم يلبث أن بدت له ، فلما نظرت إليه تنكرت ، ثم مضت فأسرعت ، فمر يسعى خلفها يأمل منها نظرة فلم يصل إليها وفاتته فانصرف إلى منزله وقد تضاعف عليه الحزن واشتد الوجد ، فلبث أياماً وهو على حاله ، إلى أن أعقبه مرض أضناه وأنحل جسمه وظل صريعاً على الفراش ، فلما طال به سقمه وتخوف على نفسه وبعث إلى عمه لينظر إليه ويوصيه بما يريد ، فلما رآه عمه ونظر إلى ما به سبقته العبرة إشفاقاً عليه فقال له إياس : كف جعلت فداك يا عم ، فقد أقرعت قلبي . فكف عن بعض بكائه ، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة . فقال له : عز والله يابن أخى ، ولن أدع حيلة أطلب الشفاء لك . فانصرف إلى منزله وأرسل إلى مولاة له كانت ذات عقل فأوصاها به وبالتعاهد له والقيام عليه . فلما دخلت المولاة عليه فتأملته علمت أن الذى به عشق . فقعدت عند رأسه ، فأجرت ذكر صفوة لتستيقن ما عنده . فلما سمع ذكرها زفر زفرة . فقالت المرأة : والله ما زفر إلا من هوى داخل ولا أظنه إلا عاشقاً ، فأقبلت عليه كالممازحة له ، فقالت له : حتى متى تبلى جسمك ، فوالله ما أظن الذى بك إلا هوى . فقال لها إياس : يا أمة ، لقد ظننت بى ظن سوء فكفى عن مزاحك . فقالت : إنك والله لن تبديه إلى أحد هو أكتم له من قلبى فلم تزل تعطيه المواثيق وتقسم عليه إلى أن قالت له : بحق صفوة . فقال لها : أقسمت علىّ بحق عظيم . ولو سألتنى به روحى لدفعتها إليك ، ثم قال : والله يا أمة ما عظم دائى إلا بالاسم الذى أقسمت على بحقه الله الله فى كتمانه . وطلب وجه الحيلة فيه. فقالت : أما إذا أطلعتنى عليه فسأبلغ فيه رضاك إن شاء الله . فسر بذلك وأرسل

معها بالسلام إلى صفوة . فلما دخلت عليها ابتدأتها صفوة بالمسألة عن الذى بلغها من مرضه وشدة حالته ، فاستبشرت المولاة بذلك ، ثم قالت : يا صفوة ما حالة من يبيت الليل ساهراً محزوناً يرعى النجوم ويتمنى الموت ؟ فقالت صفوة : ما أظن هذا على ما ذكرت بباق . وما أسرع منه الفراق . ثم أقبلت على المولاة فقالت : إنى أريد أن أسألك عن شىء ، فبحقى عليك إلا أوضحته . فقالت : وحقك ، إن عرفته لاكتمتك منه شيئاً . قالت : فهل أرسلك إياس إلى أحد من أهل وده فى حاجة ؟ فقالت المولاة : والله لأصدقنك . والله ما جل داؤه وعظم بلاؤه إلا بك . وماأرسلنى بالسلام إلا إليك ؛ فأجيبيه إن شئت أو دعى . فقالت : لا شفاك الله ، والله لولا ما أوجب من حقك لأسأت إليك . وزجرتها ، فخرجت من عندها كئيبة ، فأتته فأعلمته فازداد على ما كان عنده من مرضه وأنشأ يقول :

كتمت الهوى حتى إذا شب واستوت
قواه ، أشاع الدمع ما كنت أكتم
فلما رأيت الدمع قد أعلن الهوى
خلعت عذارى فيه ، والخلع أسلم
فيا ويح نفسى ! كيف صبرى على الذى !
وقلبى وروحى عند من ليس يرحم

قال : ثم إن عمه دخل عليه ليعرف خبره . فقال : يا عم ، إنى مخبرك بشىء لم أخبرك به حتى برح الخفاء ولم أطق له محملا فأخبره الخبر فزوجه وبرأ من علته » .

٣ – عظيم ومنكود :

لقمان بن عاد رجل عملاق . ويتحدث كتاب التيجان وغيره من الكتب الأدبية عن عظمته ، وأنه أعطى عمر سبعة أنسر ، والنسر أطول الطيور عمراً ، فكان لقمان يراعى النسور ويعتنى بها . وكلما مات نسر اهتم بالنسر الثانى . وفى كتاب التيجان أشعار مؤثرة ورقيقة تنشد حول كل نسر من الأنسر السبعة .

ولكن هذا الرجل العظيم العملاق الذى ملأ الدنيا أشعاراً وحكمة ، كان مبتلى بالنساء كلما تزوج امرأة خانته على حد تعبير ابن السراج .

وقد مر بتجارب مريرة مع المرأة صبغت نظرته نحو النساء بلون خاص فما أكثر حديثه عن مكر المرأة وكيدها ودهائها ، وكان يخرج من كل تجربة بحكمة ينشدها الناس وترددها الأجيال .

خرج لقمان بن عاد يجول فى قبائل العرب ، فنزل بحى من العماليق فبينا هو كذلك إذ ظعن القوم ، فظعن فيهم ، فسمع بامرأة تقول لزوجها : فلان ، لو حملت سفطى هذا فإن فيه من متاع النساء ما لا بد لهن منه ، ولعل البعير يقع فينكسر ، وذلك من لقمان بمنظر ومسمع . فقال : أفعل . فاحتمله على عاتقه . فلما انحدر وجد بللاً فى صدره . فشمه فإذا هو بريح بول قد جاء من السفط الذى على رأسه ، ففتح السفط فإذا هو بغلام قد خرج منه يعدو . فلما نظر لقمان قال : يا إحدى بنات طبق – وبنات الطبق أن تأتى الحية السلحفاة فتلتوى عليها فتبيض بيضة واحدة فتخرج منها حية شبرا أو نحوه لا تضرب شيئاً إلا أهلكته – فتبعه لقمان حتى لحقه فجاء به واجتمع الناس إليه وقالوا : يا لقمان احكم فيما ترى . فقال : ردوا الغلام فى السفط يكون له مثوى حتى يرى ويعلم أن العقاب فيما أتى . وتحمله المرأة بفعلها ، حملوها ما حملت زوجها ثم

شدوه عليها . فإن ذلك جزاء مثلها » . فعمدوا إلى الغلام فشدوه فى السفط ثم شدوه فى عنق المرأة وتركوهما حتى ماتا .

فأتى لقمان قبيلة أخرى فنزل بهم ، فبينا هو كذلك إذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها . فسألت إحداهن : أين تذهبين ؟ فقالت : إلى الخلاء ، ثم خرجت إلى بيوت الحى . فعارضها رجل ، فقضيا جميعاً ، ولقمان ينظر فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها . فقالت المرأة : هل لك أن أتماوت على أهلى فإنما هو ثلاثة أيام أكون فى رجمى ثم تجىء فتستخرجنى فتتمتع ؟ فقال الرجل : افعلى — وكان اسمه الخلى وزوج المرأة اسمه الشجى — فقال لقمان « ويل للشجى من الخلى » فذهبت مثلا . فلم تلبث المرأة إلا أياماً حتى تماوتت على أهلها . وكان الميت منهم إذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن إذ ذاك قبور . فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها . فأخرجها وانطلق بها إلى منزله وتحول الحى من ذلك المكان ، وخافت المرأة أن تعرف ، فجزت شعرها وتركت لنفسها جمة . فبينا هم كذلك إذ خرجت بنات المرأة فإذا هن بامرأة جالسة ذات جمة . فقالت الصغرى : أمى والله . قالت الوسطى : صدقت والله . قالت المرأة : كذبتما ما أنا لكما بأم . قالت الكبرى : صدقت والله ، لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ما كان لأمنا إلا لمة . قالت الصغرى : هبلك أنكرت أعلاها أما تعرفين أخراها ، فتعلقت بها . فقالت الأم : « صغراهن مراهن » فذهبت مثلا . واجتمع الناس وجاء زوج المرأة. فارتفعوا إلى لقمان فقالوا : احكم بيننا. فقال لقمان :

« عند جهينة الخبر اليقين »

فذهبت مثلا وكان يلقب بجهينة ، فقال لقمان للمرأة : أخبرك أم تخبرينى ؟ قالت : بل قل . قال : إنك قلت لهذا إنك متماوتة على أهلى ، فإذا دفنونى فى رجمى جئت فاستخرجتنى وأتنكر لهم فلا يعرفونى فتنعم

ما بقينا . فاعترفت المرأة فقيل للقمان : احكم بيننا. قال : ارجموها كما رجمت نفسها . فحفروا لها حفرة وألقوها فيها ورجموها .

وفى كتاب ذم الهوى يقول الشعبي :

كان لقمان بن عاد بن عاديا الذى عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء ، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتاً فى سفح جبل ، وجعل لها درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد فإذا خرج رفعت السلاسل .

حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه . فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حرباً لا تقومون بها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : امرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس إلى .

قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلونى بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم ائتوا لقمان فقولوا له : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوماً .

ففعلوا وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج لقمان ، وتحرك الرجل ، فحلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف . حتى انقضت الأيام .

ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فإذا نخامة تنوس فى السقف . فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى . ففعلت فلم تصنع شيئاً . فقال : يا ويلتاه السيوف دهتنى ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً .

ثم انحدر مغضباً ، فإذا ابنة له يقال لها صحر . فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك ؟ . قال : وأنت أيضاً من النساء . فضرب رأسها بصخرة فقتلها ، فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر . فصارت مثلا .

ومثل هذه حكايات كثيرة وردت فى معظم الكتب العربية القديمة مثل أخبار عبيد بن شرية ، والتيجان . والمحاسن والمساوئ . وذم الهوى ، ومصارع العشاق . . . إلخ . وكل هذه الحكايات يغلب عليها ذلك الطابع الذى يميل إلى تحقير النساء والتحذير من مكرهن وكيدهن .

وهذه القصص لا تتفق مع الطبيعة العربية . فالمرأة العربية لم تكن بهذه الصفة ، إذ لم تكن خائنة مخادعة تستغفل زوجها وتبيع بناتها وتضحى بسمعتها ، والرجل العربى لم يكن ينظر إلى المرأة مثل هذه النظرة المتوجسة ، ولو رجعت إلى رسالة الدكتور أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » أو إلى كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلى » لوجدت أن العرب كانوا ينظرون إلى المرأة نظرة فيها تقدير واحترام سواء كانت زوجة أم أما أم أختاً .

وفى بعض هذه القصص ما يدعو إلى نفى صدقها التاريخى . فما الداعى لأن تطلب المرأة من زوجها أن يحمل لها السفط كما جاء فى المحاسن أو التابوت كما جاء فى التيجان ؟ هل هى ترغب فى إذلال زوجها وكفى ؟ ولم تعرض نفسها للفضيحة ؟ وما الداعى الذى يجعل الرجل يحمل السفط أو التابوت على كتفه ؟ لم لا يركب بعيره ويحمله معه ؟ وما الداعى الذى جعل هذا الغلام يبول فى ذلك الوقت بالذات ؟ . . . إلخ .

إننى أشك فى هذه القصص من الناحية التاريخية ، وأظن أنها حكايات قد وضعت وتدوولت ؛ وكان المقصود منها بيان مكر المرأة ، وقدرتها على الخداع والحيلة . ولهذا أحسن صاحب المحاسن والأضداد حين ذكرها تحت عنوان « مساوئ مكر النساء » .

وأظن أيضاً أن هذه القصص قد اجتلبت إلى العرب من الخارج ؛ فلو كان واضعها رجلا عربياً لكان على وضعه مسحة عربية . ولكن العرب لا ينظرون إلى المرأة هذه النظرة بل يحترمونها وتحترم هى نفسها عن أمثال

هذه المخاتلات (١). وصورة المرأة هنا أقرب إلى صورة المرأة اليهودية التى تستخدم المكر والخديعة والخيانة (٢).

وخاصة إذا عرفنا أن العرب لم يكونوا قفلا أمام الحضارات الأخرى فقد كانت لهم صلات بالروم والفرس وغيرهما. وقد كان من العادات الاجتماعية الشائعة عند العرب أن يجلسوا داخل خيمة أو بجانب نار ويستمعون إلى شخص يسرد عليهم القصص. وبعض هذه القصص كانت فارسية أو بيزنطية أو بابلية الأصل كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : (The Modern Arabic Short Story).

* * *

---

(١) انظر مقالا لى عن « المرأة فى قصص القرآن وقد تعرضت فيه لنظرة الأساطير الإغريقية نحو المرأة ، ثم لنظرة التوراة ، ثم لنظرة القرآن .

(٢) انظر سفر أستير ، ومقالا لى بمجلة الرسالة (١١ من ذى الحجة سنة ١٣٨٣ هـ) .

المراجع

هذه قائمة المراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب ، والتى يمكن للقارئ أن يرجع إليها . لتعميق نظرته نحو هذا الموضوع ، وهى مرتبة بحسب الحروف الهجائية .

أولا : المراجع العربية

(ا)

١ – أخبار الظراف والمتماجنين لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، ونشر القدسى (دمشق سنة ١٩٤٧ م) .
٢ – أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (حيدر آباد – الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ) .
٣ – أخبار عروة بن حزام . لم يعلم جامعه (مطبعة جول بروك بمحروسة الجزائر) .
٤ – أخبار النساء للعلامة شمس الدين أبى عبد الله الدمشقى الحنبلى المعروف بابن قيم الجوزية (القاهرة – مطبعة محمد أفندى مصطفى سنة ١٣٠٧ هـ) .
٥ – الأدب القصصى عند العرب للأستاذ موسى خليل سليمان (بيروت دار الكتاب اللبنانى – مطابع دار الغد سنة ١٩٥٦ م) .
٦ – أضواء على السير الشعبية للأستاذ فاروق خورشيد (القاهرة – المكتبة الثقافية) .
٧ – الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (طبعات مختلفة) .

٨ – ألف ليلة وليلة (القاهرة – مطبعة عبد الرحمن رشدى ببولاق – الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩ هـ . وأيضاً : بيروت – مطبعة الآباء اليسوعيين) .
٩ – الأمالى لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى (القاهرة – مطبعة دار الكتب – الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ) .

(ب)

١٠ – البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ) .

(ت)

١١ – تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار (القاهرة – مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١ م) .
١٢ – التحفة البهية والطرفة الشهية ، لم يذكر اسم جامعها (مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ) .
١٣ – تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق للشيخ داود الأنطاكى (القاهرة – مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .
١٤ – تفسير الزمخشرى المسمى « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » للإمام محمود بن عمر الزمخشرى (القاهرة – مطبعة مصطفى محمد – الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤) .
١٥ – التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى (القاهرة – المطبعة الخيرية بجمالية مصر – الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ هـ) .

١٦ – تفسير النيسابورى المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى ، على هامش تفسير الطبرى (القاهرة – مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ) .
١٧ – التيجان فى ملوك حمير عن وهب بن منبه : رواية ابن هشام (حيدر آباد – الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ .

(ح)

١٨ – حب ابن أبى ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك (القاهرة – المطبعة الرحمانية – الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٦ هـ) .
١٩ – الحب العذرى : نشأته وتطوره للأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى (القاهرة مطبعة دار الكتاب العربى سنة ١٩٤٧ م .
٢٠ – الحب العذرى للأستاذ موسى خليل سليمان . (بيروت – دار العلم للملايين سنة ١٩٤٧ م) .
٢١ – حديث الأربعاء للدكتور طه حسين (القاهرة – مطبعة الحلبى سنة ١٣٥٦ هـ – سنة ١٩٣٧ م .
٢٢ – الحياة العاطفية للدكتور محمد غنيمى هلال (القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ – مكتبة الأنجلو) .
٢٣ – الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى (القاهرة سنة ١٣٦٩ هـ) .

(د)

٢٤ – دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .
٢٥ – ديوان الصبابة لشهاب الدين أحمد بن حجلة المقرى على هامش

* تزيين الأسواق (القاهرة ـ مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .
٢٦ ــ ديوان عنترة بن شداد (بيروت ـ الطبعة الثالثة) .

(ذ)

٢٧ ــ ذم الهوى للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد (القاهرة ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ ـ سنة ١٩٦٢ م) .

(ر)

٢٨ ــ رواية مجنون ليلى لأحمد شوقى (القاهرة سنة ١٩٤٥ م) .
٢٩ ــ روضة المحبين ونزهه المشتاقين للشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، تصحيح أحمد عبيد (القاهرة مطبعة السعادة سنة ١٣٧٥ هـ)

(ز)

٣٠ ــ الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهانى ، نشر الدكتور لويس نيكل البوهيمى . (بيروت سنة ١٩٣٢) .
٣١ ــ زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى ، على هامش العقد الفريد (القاهرة ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥) .

(س)

٣٢ ــ سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال (القاهرة ـ المكتبة

الحسينية المصرية بالأزهر الشريف – الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ وسنة ١٩٠٩م) .

٣٣ – سيرة فارس اليمن وسيد أهل الكفر والمحن ، سيف بن ذى يزن (القاهرة – مطبعة الشيخ شرف موسى سنة ١٣٠٣ هـ) .

(ش)

٣٤ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة – دار إحياء الكتب العربية – مطبعة الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ) .

(ط)

٣٥ – طوق الحمامة فى الألفة والألاف للإمام أبى محمد على بن سعيد بن حزم ، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى (القاهرة – مطبعة حجازى ١٣٦٩ هـ – سنة ١٩٥٠ م) .

(ع)

٣٦ – العقد الفريد للإمام شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسى (القاهرة – المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ) .

(غ)

٣٧ – الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى (القاهرة – مطبعة لجنة البيان العربى – الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠ هـ – سنة ١٩٥٠ م) .

(ف)

٣٨ ــ فن القصة القصيرة للدكتور رشاد رشدى (القاهرة سنة ١٩٥٩) .

(ق)

٣٩ ــ القرآن الكريم .
٤٠ ــ القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى (القاهرة ــ المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٣٠ هـ) .
٤١ ــ القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشى (القاهرة ــ ــ المكتبة الثقافية ــ العدد ١٠٦) .
٤٢ ــ قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى ، لم يعلم جامعها (القاهرة ــ مطبعة الجمل المصرية ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٤١ هـ وسنة ١٩٢٣ م) .
٤٣ ــ قصص الأنبياء أو خلق الدنيا وما فيها لأبى الحسن محمد بن عبد الله الكسائى .
٤٤ ــ قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى .
(رسالة نال عليها مؤلف الكتاب درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز ــ تحت الطبع بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب) .

(ك)

٤٥ ــ الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .
٤٦ ــ كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندى ، ترجمة عبد الله بن المقفع . (القاهرة ــ المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٧ م) .

(ل)

٤٧ – لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور .

٤٨ – ليلى والمجنون أو الحب الصوفي للشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي ، ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال (القاهرة – المطبعة العالمية سنة ١٩٦٢ – مكتبة الأنجلو المصرية .

(م)

٤٩ – مأساة الشاعر وضاح للأستاذين محمد بهجة الأثري وأحمد حسن الزيات : (بغداد – مطبعة العهد سنة ١٣٥٤ هـ .

٥٠ – مائدة أفلاطون ، نقل الأستاذ محمد لطفي جمعة مصر سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩١٢ (القاهرة – مكتبة ومطبعة التأليف بشارع عبد العزيز .

٥١ – المحاسن والأضداد المنسوب لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري تصحيح الخانجي . (القاهرة – مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ) .

٥٢ – المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي (القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٥٣ – مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي . (القاهرة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ) .

٥٤ – المستطرف في كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهي (القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ) .

٥٥ — مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر بن أحمد الحسين السراج (القاهرة — مطبعة التقادم سنة ١٩٠٧ م) .

٥٦ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . (القاهرة — كتاب الشعب العدد ٣٦) .

٥٧ — الموشى أو الظرف والظرفاء لأبى الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء ، تحقيق الأستاذ كمال مصطفى (القاهرة — طبع الخانجى الطبعة الثانية) .

(ى)

٥٨ — يحكى عن العرب للأستاذ موسى خليل سليمان . (بيروت — دار الكتاب اللبنانى — الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ م .)

ثانياً : المراجع الإفرنجية

٥٩ — Encyclopeadia Britanica (Volume 20 1768).

٦٠ — The Modern Arabic Short Story. By : Abdel-Aziz Abdel-Meguid (Al-Maaref Press. Cairo).

ثالثاً : الدوريات

٦١ — مجلة الثقافة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان « السلبية والإيجابية فى قصص العشق العربية » (٣٠ مارس سنة ١٩٦٥) .

٦٢ ـ مجلة الرسالة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان «أوبرات عربية» (العدد ١٠٢٩ ـ ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ) .

٦٣ ـ مجلة المجلة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان «القصة العربية القديمة » (العدد ٩٥ ـ نوفمبر سنة ١٣٦٤ م) .

٦٤ ـ مجلة منبر الإسلام مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان « المرأة فى قصص القرآن » (ربيع الآخر سنة ١٣٨٤ هـ) .

الفهرست

الموضوع — الصفحة

دار المعارف بمصر

تقدم تحفة القصص الخيالية العالمية

المكتبة الخضراء للأطفال

- مجموعة من القصص تجمع بين المتعة والفائدة، وتخاطب عقل الطفل وخياله ، وتغمر دنياه بالبهجة والسرور .
- غلاف جميل ، وصور رائعة بالألوان ، وطباعة فاخرة .

صدر فيها :

١ – أطفال الغابة	٢ – سندرلا	٣ – السلطان المسحور
٤ – القداحة العجيبة	٥ – البجعات المتوحشات	٦ – الأميرة الحسناء
٧ – الرفيق المجهول	٨ – الأميرة والثعبان	٩ – الملك أبو لحية
١٠ – الأنف العجيب	١١ – البلبل	١٢ – الجميلة النائمة
١٣ – عقلة الأصبع	١٤ – عروس البحر	١٥ – الأخوات الثلاث

ثمن الكتاب الواحد ١٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعارف

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة

مجموعة « قصص عربية »

تعرف الناشئ بالكثير من مزايا العرب ، وتتيح له الاستزادة من الثقافة الفكرية والجغرافية والدينية والتاريخية واللغوية .

صدر فى هذه المجموعة :

- حى بن يقظان

الثمن ١٨ قرشاً

- ابن جبير فى مصر والحجاز

الثمن ٤٥ قرشاً

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

٥/٠٠/٠٠/٢٨٧